الإمام أبو حامد الغزالي

التفكر في خلق الله

الإنسان - الأرض - السموات وعجائبها

من أعظم الكتب التي ألفها الإمام الغزالي
والتي تتفق مع معطيات البيولوجيا والعلوم الحديثة

حققه وعلق عليه وقدم له

ماهر المنجد

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

التفكر في خلق الله

الرقم الاصطلاحي : ١٠٤٧
الرقم الموضوعي : ٢١٠
الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-237-6
الموضوع : دراسـات إسـلاميـة
العنوان : التفكر في خلق الله
التأليف : أبو حامد الغزالي
تحقيق : مـاهر المنجـد
الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية بدمشق
عدد الصفحات : ١٤٤
قياس الصفحة : ١٢ × ١٧ سم
عدد النسخ : ١٠٠٠



الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥

دار الفكر بدمشـ
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحـ
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦
برقياً : فكر - فاكس ٢٢٣٩٧١٦
تلكس FKR 411745 Sy

مقدّمة المحقّق

ولِد الإمام أبو حامد محمد بن أحمد الطوسي المعروف بالغزالي سنة ٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٩ م بمدينة طوس في خراسان ، ثم قدِم نيسابور وهو في العشرين من عمره ، فاتصل بإمام الحرمين أبي المعالي الْجُوَيْني ، فدرس الفقه والفلسفة ، ثم عهد إليه نظام الملك وزيرُ السلطان ملكشاه السلجوقي بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وتعدُّ هذه المدرسة من أعظم المعاهد العلمية العالية آنذاك .

وما لبث أن مرَّ الغزالي بأزمةٍ فكرية قوامها الشك ؛ دفعته إلى التعمق في العلوم الفلسفية ، فترك التدريس وانتقل إلى الشام ، واعتكف في المسجد الأموي ، ثم ارتحل إلى القدس ، ومن هناك انتقل إلى بلاذ الحجاز وأدى مناسك الحج . ثم عاد إلى دمشق ليدرِّس العلوم الدينية في زاوية المسجد[1] .

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن إبراهيم حسن : ٥٣٢/٤ .

رحل الغزالي - فيما بعد - إلى الإسكندرية في مصر فالتقى بالفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . ثم كُلِّف بالتدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور من قِبل الوزير فخر الملك بن نظام الملك ، فبقي يدرِّس مدة سنتين قبل أن يعود إلى مدينته طوس ليلبِّي نداء ربه ؛ حيث وافته المنية[1] عام ٥٠٥ هـ - ١١١١ م .

لقد كانت تجربة الغزالي الفلسفية تجربة عنيفة معقدة ؛ انتهت بانقلاب شامل على الفلسفة نجح فيه نجاحاً بارعاً . بيد أن هذا النجاح كان طعنة نجلاء قضت على ازدهار الفلسفة العقلية والانتقادية[2] ، وأدَّت إلى جمود الإبداع الفلسفي في المشرق والمغرب معاً .

يوضِّح الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) صراعه الباطني في الكشف عن الحقيقة ، ويصف تجربته الفلسفية بأدق تعبير ؛ تلك التي بدأت بفك عرى التقليد والغرق في أتون الشك

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٥٣ .

(٢) انظر المذاهب الفلسفية للدكتور عادل العوا ، صفحة ١٨٧ .

المنهجي ؛ الذي بقي فيه قرابة الشهرين على « مذهب الفلسفة بحكم الحال ؛ لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها علي من أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله تعالى في الصدور ... »[١] .

لقد كانت شخصية الغزالي متعددة الجوانب ؛ رحبة الآفاق ، فهو حكيم ديني ؛ وفيلسوف واقعي ؛ ومفكّر وضعي ؛ ومصلح اجتماعي ؛ ومهذّب صوفي[٢] . وقد كانت قبله حروب هائلة بين الفقهاء والمتصوفة ، فجاء الغزالي يصالح الفريقين ، ويرضي كثيراً من الفقهاء عن التصوف ؛ وكثيراً من المتصوفة عن الفقهاء[٣] . والظاهر من سيرته أنه كان نهماً في تحصيل العلم ، لم يدع باباً يظن أنه يوصله إلى معرفة الحقيقة إلا طرقه . ولم

---

(١) انظر كتابه (المنقذ من الضلال) : صفحة ٦٣ .

(٢) راجع كتاب (الغزالي) للدكتور أحمد الشرباصي : صفحة ٢٠ .

(٣) انظر (ظهر الإسلام) لأحمد أمين : صفحة ١٦٥ .

تعجبه الفلسفة والفقه المجرد من الروح ، ولا تعاليم الباطنية ، وإنما اطمأنَّ أخيراً إلى التصوف وأحبه وركن إليه[1] ... وقد تابع الغزالي بمعنى إيجابي عمل القشيري ، وأعطى الصوفية مكاناً ثابتاً لدى أهل السُّنة ـ كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية ـ وقد كان الوجد بالنسبة له أساس كل حقيقة دينية ... وقد حاول جاهداً أن يعيد الناس إلى الدين وإلى طريق القدماء[2] ...

ويرى (وِل دُيورانت) في قصة الحضارة أن اعتناق الغزالي لمذهب التَّصوف كان نصراً باهراً للصوفيين ، ذلك أن أهل السُّنة قد أخذوا من بعده بالتَّصوف ، حتى طغت ـ مع الأسف ـ عقائد الصوفية وقتاً ما على قواعد الدين ، وأخذ الزهاد المتصوفة يهجرون حياة الأسرة ، ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ، ويسمون أنفسهم الفقراء والدراويش[3] ..

(١) المرجع السابق : ١٦٦/٤ .

(٢) دائرة معارف الإسلام . الطبعة الأولى عام ١٩٢٧ ـ المجلد الثاني من النسخة الفرنسية ، والمقال للمستشرق : د . ب مكدونالد .

(٣) راجع قصة الحضارة ـ وِل ديورانت : ٣٦٥/١٣ .

أصل الكتاب وعملنا فيه :

إن كتاب (التَّفكُّر) هو في الأصل جزء من كتاب الغزالي الكبير الموسوم بـ (إحياء علوم الدين) ، وهو كتاب قسمه مؤلِّفه إلى مجموعة كتب ، لكنه جمعها كلها في كتابه المذكور . والذي دفعنا إلى العمل في هذا الكتاب وإعادة نشره على كتب وأجزاء أسباب كثيرة ؛ منها ما يتعلق بالجانب العلمي ، ومنها ما يتعلق بجانب التَّلقِّي . فالكتاب الأصلي موسوعة دينية ضخمة ، وهو من أوسع كتب الغزالي شهرة ، ولكنه مع الأسف الشديد مطروح في الأسواق دون أي تحقيقٍ علمي يضبط نصه ؛ ويقوِّم أخطاءه ؛ ويرتِّب أفكاره ؛ ويشرح غريبه ؛ ويغنيه بالتعليقات التي لا بدَّ منها في كتاب من هذا النوع لمؤلِّفٍ له ماله ؛ وعليه ماعليه ... فمن أجل هذه الأمور جميعاً كان عملنا في الكتاب ، ولم نكتفِ بذلك فحسب ؛ بل قمنا بتخريج أحاديث الغزالي كافة بالاعتماد على ما أجمع عليه العلماء من كتب الحديث المعتمدة .

وذَكَرْنا أصل الحديث المرويّ كاملاً ؛ فإن كان له رواية أخرى تفيد السياق ذكرناها ، ذلك أن الغزالي ـ رحمه الله ـ كان يروي معظم الأحاديث بالمعنى ، ولا يحافظ ـ في الأغلب ـ على ألفاظ الحديث ، بل ربما ساق حديثاً شطره الأول صحيح ؛ وشطره الثاني مضاف وموضوع !! ومن هنا تأتي أهمية ذكرنا لأصل الحديث كاملاً ، فعدم ذكر الحديث بألفاظه الأصلية قد يُغيِّر في بعض الأحيان من معناه الحقيقي ، وكذلك أيضاً ما يضاف إليه ؛ فقد يحرّف المعنى ويعدل به من جهة إلى أخرى . ثم إنَّ لِسياق الحديث وقصته وظروفه المحيطة أهميةً عظيمة في توجيه دلالته وفهم مغزاه الذي أُريدَ فعلاً .

وقد كان للإمام عبد الرحيم العراقي حاشية على كتاب الغزالي خرَّج فيها أحاديثه ، غير أنه كان يكتفي ـ في أغلب الأحيان ـ بذكر مصدر الحديث فقط ؛ دون إيراد النص الأصلي للحديث بألفاظه الأساسية ، أو إيراد رواياته الأخرى إن كانت ذات أهمية .. وعلى الرغم من ذلك تبقى حاشية العراقي ذات قيمة وقد استأنسنا بها .

كما خرَّجنا جميع الآيات القرآنية الواردة في الكتاب فذكرنا اسم السورة ورقم الآية ، ثم أوردنا الآية المذكورة كاملة ؛ ليعرف القارئ الكريم سياقها ، لأن الغزالي كان كثيراً ما يستشهد بجزء صغير من الآية ، وربما اجتثَّ هذا الجزء من سياق الآية ؛ ليأخذ منها حكماً عاماً قد كان خاصاً في الأصل .

وقد تتبعنا الغزالي في جميع أقواله وآرائه خطوة خطوة ، فما كان محتاجاً إلى تعليق علَّقنا عليه ؛ كشفاً لملابساته ؛ وبياناً لأبعاده ؛ وإرشاداً لقارئه ، وهذا الأمر هو من الأهمية بمكان ؛ خاصة إذا علمنا أن الغزالي ـ رحمه الله ـ كان في بعض الأحيان يسوق آراء شخصية بلا دليل ، ومن ثَمَّ فإن العمل بها غير ملزم إطلاقاً ؛ لأنها ليست أحكاماً شرعية ، وإنما وجهة نظر مفكِّر إسلامي مال إلى الزهد والتصوف ، فبالغ أحياناً في بعض روحانياته على حساب الواقع المعيش ومبادئ الدين ، والإسلام هو في أصله دين عملٍ وإنتاج وحضارة لا دين تواجد وذِكرٍ وتواكل ..!

وبقي علينـــا أن نعطي للقـــارئ الكريم لمحـــة عن بعض مصطلحات الحديث وأقسامـه ليكون على بيِّنـة من أمره ، لأن الغزالي كان كثير الاعتماد على الحـديث النبـوي الشريف في بنـاء آرائه وأفكاره وأحكامه .

لقد اصطلح علمـاء الحـديث على تقسيم الحـديث إلى ثلاثـة أقسام :

« حديث صحيح ـ حديث حسن ـ حديث ضعيف » .

وأصـل الحـديث الحسن ـ وهـو القسيم الأوسـط ـ حــديث ضعيف عند العلماء المتقـدمين ، ولكنهم كانوا قـد قسموا الحـديث ''ضعيف إلى متروك العمل به وإلى غير متروك العمل به ، فأمـا يف المتروك فهــو مـــا كان راويـــه كثير الغلـــط أو متَّهماً ذب . وأما غير المتروك من الضعيف فهو ما كان راويه ليس ثير الغلـط ولا متَّهماً بـالكـذب ، وإنمـا هـو خفيف الضبــط تسب ، ثم سمي ـ فيما بعـد ـ هـذا النـوع غير المتروك حـديثــاً حسناً .

وأما الموضوع فلم نذكره في القسمة السابقة لأنه ليس حديثاً بالأصل ، فهو كلام مختلقٌ ومكذوب ؛ يزعم واضعُه أنه مرويٌّ عن رسول الله ﷺ وما هو كذلك ، وقد قال السيوطي في التدريب :

« وإنما لم يُذكر الموضوع لأنه ليس في الحقيقة بحديث اصطلاحاً ، بل بزعم واضعه » .

وينبغي ههنا أن نذكِّر القارئ الكريم بالمفهوم الاصطلاحي لكل نوع من الأحاديث ، وما يترتب عليها من أحكام في التشريع ليعرف المغزى من قولنا في الحاشية تعليقاً على أحاديث الغزالي : هذا حديث صحيح ، وهذا حديث ضعيف ، وهذا لا أثر له في الكتب الستة ... إلخ .

لقد عرَّف ابن كثير في اختصار علوم الحديث ؛ الحديثَ الصحيح بأنه الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط ، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه ، ولا يكون شاذّاً ولا معلَّلاً .

والحديث الصحيح حُجَّة في التشريع ، بل إنه لا فرق بين القرآن وبين الحديث الصحيح في التحليل والتحريم . وقد أجمع العلماء الأقدمون كافة ـ بما فيهم أبو حنيفة ـ على أن الحديث إذا صحَّ يُقدَّم على القياس والرأي .

أما الحديث الحسن فهو الحديث المسند الذي يتصل سنده بنقل عدل خفيف الضبط ، ولا يكون شاذاً ولا معلّلاً .

وقد يوصف الحديث الحسن بأنه (حسن صحيح) حين تكون روايته التي وُصِفَتْ بالحسن قد ثبتت من جهة أخرى لها شروط الصحة .

وأما الحديث الضعيف فهو ما لم يتحقق فيه صفات الحديث الصحيح ولا الحديث الحسن . وله أنواع كثيرة منها مُرسَل والمنقَطِعُ والْمُعْضِلُ والْمُدَلَّس والْمُعَلَّل والْمُضْطَّرِب وب والشَّاذ والْمُنْكَرُ ... إلخ .

والحديث الضعيف لا يجوز العمل به ؛ أو الأخذ به في أي جه من الوجوه ولا حتى في فضائل الأعمال . وأما عبارة القدماء :

« إذا روينا في الحلال والحرام شددْنا ، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا » ، فقد فُهِمَتْ على نحو مغلوط ، وهي لا تعني جواز العمل بالضعيف في فضائل الأعمال ، وفي ذلك يرى الدكتور صبحي الصالح ـ رحمه الله ـ أن المقصود بالتشدد هو أنهم لا يحتجون إلا بأعلى درجات الحديث وهو الصحيح . والمقصود بالتساهل هو قبول ما هو دون الصحيح في المرتبة ، وهو الحديث الحسن الذي لم تكن تسميته قد استقرت في عصرهم ، وقد كان يُعدُّ قسماً من الضعيف كما ذكرنا وهو غير المتروك .

إن الحديث الضعيف لا يمكن أن يكون مصدراً لحكم شرعي ، ولا لفضيلة خلقية ، لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، والفضائل كالأحكام هي من دعائم الدين الأساسية ، ولا يجوز أن تكون هذه الدعائم مبنية على أساس هش ، وزوايا ضعيفة أساسها الشك ، فالدين لا يقوم إلا على اليقين ...

وبقي أن نشير إلى الخبر الموضوع الذي يزعم واضعه أنه حديث عن رسول الله ﷺ ، وهو خبر يصنَعُه أحد الكذّابين ،

ويصوغ ألفاظه ، ويخترع له سنداً ، ثم ينسبه إلى الرسول ﷺ .

وقد كان للوضع أسباب كثيرة منها الخصومة السياسية ، والانتصار للمذهب ، والخلافات الكلامية والفقهية ، والتَّشبُّه بأهل العلم ، والتَّكسُّب والارتزاق ، وما شاكل ذلك ...

بيد أن جهابذة العلماء الأقدمين نهضوا نهضة قوية لتنقية الحديث مما دخله وحُمِل عليه ، وسلكوا في ذلك جملة مسالك واضعين منهجاً علمياً دقيقاً ؛ يميِّزون به الغثَّ من السَّمين ، فمن ذلك أنهم وضعوا قواعد أساسية للكشف عن الخبر الموضوع والحديث المكذوب ، فإن توافر واحد منها حكموا بكذب الخبر . كما وضعوا علم الجرح والتعديل ، ودراسة رجال الأسانيد ، وقسموا الحديث تقسيماً دقيقاً من حيث قوته والأخذ به ، ووضعوا له المصطلحات والتسميات ...

وأما كتب الحديث فأصحّها ما يطلق عليه العلماء اسم (الكتب الستة) ، وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، ومجتبى النسائي ، وموطأ

الإمام مالك ، وقد اختلف العلماء في الكتاب السادس ، فمنهم مَن جعله سنن ابن ماجه بدلاً من موطأ مالك ... لكننا حين نذكر للقارئ الكريم في الحاشية عبارة (الكتب الستة) فإننا نقصد التقسيم الأول الذي يشمل الموطأ . وقد عوّلنا على هذه الكتب الستة في تخريج الأحاديث التي يذكرها الغزالي ، وجعلناها معتمدنا الأساسي مع النظر أحياناً إلى كتابي أحمد وابن ماجه . إلا أننا لم نعتد بسوى هذه الكتب ، لأن ما تبقّى من كتب الأحاديث تكثر فيه الأحاديث الضعيفة من شاذ ومنكر ومضطرب وما شاكله ... مع عدم معرفة حال رجالها ، وهذا بالنسبة لأفضلها ، إذ إنّ هناك مصنفات أخرى أكثر سوءاً جُمعت من أفواه الوعّاظ والقصّاصين والمتصوفين وأصحاب البدع والأهواء ، وهي كتب هزيلة لا يعوّل عليها أحد مطلقاً .

بيد أن الكتب الستة ليست على درجة واحدة . بل هي على درجتين ، ففي الدرجة الأولى صحيحا البخاري ومسلم ، ويمكن إضافة موطأ مالك إليهما ، ثم يليهما كتب الترمذي وأبي داود والنسائي . وصحيح أن هذه الأخيرة لم تبلغ شأو

الصحيحين والموطأ ، غير أن أصحابها لم يتساهلوا فيما اشترطوا على أنفسهم .

وتنبغي الإشارة إلى أن الغزالي ـ رحمه الله ـ كان كثيراً ما يستشهد ـ في معظم كتب الإحياء ـ بأحاديث ضعيفةٍ ، بل أحياناً بأحاديث لاأصل لها ، ثم يبني على ذلك آراء وربما أحكاماً . ووصْفُنا الحديث بالضعيف يعني أن كل ما يترتّب عليه من أمور هو غير ملزِم إطلاقاً .

لقد عرضنا منهجنا العام الذي رسمناه لأنفسنا في تحقيق كتب الغزالي في « إحياء علوم الدين » والذي ظهر واضحاً في تحقيقنا « لأسرار الصوم » . بيد أن هذا الكتاب بالذات كتاب « التفكّر » يمثّل حالة خاصة من كتب الإحياء ، إذ يخبو فيه الجانب الصوفي ليطغى عليه الجانب العقلي التأمّلي ؛ تبعاً لطبيعة الموضوع المطروح بدءاً من العنوان ، وكذلك يقلّ فيه الاعتماد على الأحاديث ليبرز ضربٌ من التأمل الفكري العميق في دقائق خلق الله ، وهنا يظهر الجانب العلمي من شخصية الغزالي الذي يذكّرنا بالغزالي عالماً قبل أن يتصوّف ، وسنعرف

بعد قراءة هذا الكتاب مدى الخسارة التي أصابت الفكر الإسلامي بخروج هذا الرجل من ميدان الفكر والعلم إلى ميدان التصوف والروحانيات .

وقد قمنا بجهد كبير في هذا الكتاب يتجلى بمتابعة جميع المسائل العلمية التي يذكرها الغزالي ههنا ، وهي مسائل تنتمي إلى علوم البيولوجيا والفيزيولوجيا والجيولوجيا .. وتجعلنا نبهر بالمستوى العلمي المتقدم الذي بلغه عصر الغزالي ، والذي هضمه هذا الرجل جيداً ، ولذلك لم نترك قضية علمية أو معلومة إلا وذكرنا ما يقابلها من علوم عصرنا الحاضر بالتفصيل ؛ ليستطيع القارئ أن يقارن بين ما يقدمة الغزالي في هذا الكتاب وبين المعطيات العلمية لقرننا هذا ؛ مذكِّرين أن بين عصر الغزالي وعصرنا ما يقارب الألف عام .

ولا يسعني أخيراً إلا أن أتوجه بالشكر إلى من ساهم بتدقيق الكتاب من الأصدقاء الأطباء لضبط المصطلحات والتسميات الطبية الواردة في الحواشي .

نسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا لخدمة تراث هذه الأمة ، إنه ولي التوفيق .

ماهر المنجد

كُتبتْ هذه المقدمة أول مرة في حمص في ١٩٩٢/١١/١٠
ثم أعيدت معدّلةً ومضافاً إليها في باريس
في ١٩٩٥/٣/٢٥

تمهيد

الحمـد لله الـذي لم يقـدِّر لانتهـاء عزَّتـه نحواً ولا قطراً ، ولا يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمتـه مجرى ، بـل ترك قلـوب الطـالبين في بيـداء كبريـائـه والهةً حيرى ، كلما اهتزَّت لنيل مطلوبها ردَّتها سُبُحات الجلال قسراً ، وإذا همَّت بالانصراف آيسةً نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ، ثم قيل لها أجيلي في تلك العبودية منك فكراً ، لأنك لوتفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً ، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمراً ، فانظري في نعم الله تعالى وأياديه ، كيف توالت عليك تترى ، وجدِّدي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً ، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشرّاً ، ونفعاً وضرّاً ، وعسراً ويسراً وفوزاً وخسراً ، وجبراً وكسراً ، وطيّاً ونشراً ، وإيماناً وكفراً وعرفاناً ونكراً .

فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمراً[1] ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً وجوراً ، فقد انبهرت العقول دون مبادي إشراقه ، وانتكصت على أعقابها اضطراراً وقهراً .

والصلاة على محمد سيد ولد آدم ؛ وإن كان لم يعدّ سيادته فخراً ؛ صلاةً تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة وذخراً ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحدٍ منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أمّا بعد : فقد وردت السُّنة بأن « تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة »[2] . وكثر الحثُّ في كتاب الله تعالى على التَّدبُّر الاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أنَّ الفكر هو مفتاح لأنوار ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف

(١) يقال أَمْرٌ إمْرٌ : أي عجب منكر ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَقَد جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ ، أي جئت شيئاً عظيماً من المنكر . وقيل الإِئر : الأمر العظيم الشنيع وقيل العجيب .

(٢) حديث ضعيف السند ، رواه الديلمي في مسند الفردوس .

والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر ؟ وفيماذا يتفكر ؟ ولماذا يتفكر ؟ وما الذي يطلب به ؟ أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ؟

فإن كان لثمرة ، فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً ؟ وكشف جميع ذلك مهم ، ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التّفكّر ، ثم حقيقة التّفكّر وثمرته ، ثم مجاري الفكر ومسارحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التَّفكُّر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكِّرين فقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِم ويَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً ﴾[١] .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنَّ قوماً تفكَّروا في الله عزَّ وجلَّ فقال النَّبيُّ ﷺ : « تفكَّروا في خلق الله ولا تتفكَّروا في الله ، إنَّكم لن تقدروا قدره »[٢] .

وعن النَّبي ﷺ : أنَّه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكَّرون فقال : « مالكم لا تتكلَّمون ؟ » . فقالوا : نتفكَّر في

(١) من سورة آل عمران ، الآية ١٩١ ، وتتمتها : ﴿ ... سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ ﴾ .

(٢) حديث ضعيف السند ، فيه رجل متروك ، وهو في حلية الأولياء وفي الترغيب والترهيب .

خلق الله عزَّ وجلَّ قال : « فكذلك فافعلوا ، تفكَّروا في خلقه ولا تتفكَّروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها ، وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خَلْق مِن خلق الله عزَّ وجلَّ ، لم يعصوا الله طرفة عين » . قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال : « وما يدرون خُلِق الشيطان أم لا » . قالوا : مِن وَلَدِ آدم ؟ قال : « لا يدرون خُلِقَ آدم أم لا »(1) .

وعن عطاء قال : انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله ﷺ :

(1) لم أجد هذا الحديث ، والقول أن هناك قوماً من البشر لم يعصوا الله طرفة عين ... أمر فيه نظر ، فهذه من صفات الملائكة لا البشر . وثمة أحاديث كثيرة في تأكيد نسبة الخطأ والذنب للإنسان ، من ذلك ما رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :
« كل ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التّوابون » أخرجه الترمذي .
وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ، فيغفر لهم » أخرجه مسلم .

« زُرْ غِبّاً تَزدد حُبّاً » . قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال : فبكت ، وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال : « ذريني أتعبد لربِّي عزَّ وجلَّ » . فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « ويحك يا بلال ! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرْضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ ﴾[1] . ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها »[2] . فقيل للأوزاعي ما غاية التَّفكُّر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن .

---

(١) من سورة آل عمران الآية : ١٩٠ .

(٢) يروى هذا الحديث على أن الذي سأل عائشة (أخبرينا بأعجب ما رأيت ...) هو عبد الله بن عمر لا عطاء ، وأصله أن عطاء قال : « انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من =

وعن محمـد بن واسع أنَّ رجـلاً من أهـل البصرة ركب إلى أم ذرّ ـ بعد موت أبي ذرّ ـ فسألها عن عبادة أبي ذرّ ، فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكّر .

وعن الحسن[1] قال : تفكُّر ساعة خير من قيام ليلـة . وعن

= زيـارتنـا ؟ قـال : قول الشـاعر (زر غبّـاً تـزدد حبّـاً) فقـال ابن عمر : ذرنا . أخبرينا بـأعجب مـا رأيتـه من رسول الله ﷺ . فبكت وقـالت : كل أمره كان عجباً ، أتـاني في ليلتي حتى مسّ جلـده جلـدي ، ثم قـال : ذريني أتعبّد لربّي عزّ وجلّ . قـالت : فقلت : والله إني لأحب قربـك ، وإني أحب أن تعبد ربك . فقام إلى القربة فتوضأ ، ولم يكثر صبّ المـاء ، ثم قـام يصلي ، فبكى حتى بلّ لحيتـه ، ثم سجـد فبكى حتى بلّ الأرض . ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنـه بصلاة الصبح ، قـالت : فقـال يـا رسول الله : مـا يبكيـك وقـد غفر الله لـك مـا تقـدّم من ذنبـك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يـابلال ومـا يمنعني أن أبكي وقـد أنزل الله عليّ في هـذه الليلـة ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرضِ واختِلافِ اللَّيـلِ والنَّهـارِ لآيـاتٍ لأُولي الألبـابِ ﴾ ، ثم قـال : ويـل لمن قرأهـا ولم يتفكّر فيهـا » ويروى : « ويـل لمن لاكهـا بين فكّيـه ولم يتـأمّلهـا » . وقـد روى هــذا الحديث ابن حميد في تفسيره مع اختلاف يسير وكذلـك روى نحوه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه وابن أبي الدنيا في كتاب التّفكّر والاعتبار .

(١) هو الحسن البصري .

الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتـك[١] . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل .

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل[٢] بقول القائل :

إذا المرء كانت لـه فكرة ففي كل شيء لـه عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم ؛ يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم ، من كان منطقه ذِكراً ، وصمته فِكراً ، ونظره عبرة ، فإنه مثلي .

وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكُّراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو ، وفي قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[٣] ، قال أمنع قلوبهم التَّفكُّر في أمري .

---

(١) ينسب هذا القول إلى الحسن أيضاً ، وعنه رواه الفضيل ، ونقله ابن كثير فقال : « وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك » .

(٢) وكان يقول أيضاً : الفكر نور يدخل قلبك .

(٣) من سورة الأعراف : الآية ١٤٦ ، وفي معناها أوجه : =

وعن أبي سعيد الخدري قال : « قال رسول الله ﷺ : أعطوا أعينكم حظَّها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر في المصحف والتَّفكُّر فيه والاعتبار عند عجائبه »[1] .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتَّقين بفكرها إلى ما قد ادُّخِر لها في حجب الغيب من خير الآخرة ؛ لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيش ، ولم تقرَّ لهم في الدنيا عين .

= فمنها أن يكون المقصود بصرفهم عن الآيات هو الطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلةً وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم .
وعن الفضيل بن عياض أن الرسول ﷺ قال : « إذا عظَّمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام » .
ومنها أن يكون المقصود أنه سيصرفهم عن إبطال الآيات وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحراً بإهلاكهم .
ومنها أن يكون المقصود أنه سبحانه سينزع عنهم فهم القرآن ويصرفهم عن آياته .

(١) حديث ضعيف الإسناد أخرجه ابن أبي الدنيا .

وكان لقمان يطيـل الجلـوس وحـده ، فكان يمر بـه مـولاه فيقول : يـا لقمان إنـك تـديم الجلوس وحـدك ، فلـو جلست مـع النـاس كان آنس لـك ، فيقـول لقمان : إنَّ طـول الـوحـدة أفهم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة .

وقال وهب بن منبّه : ما طـالت فكرة امرئ قـط إلا علم ، وما علم امرؤ قطّ إلاّ عمل . وقال عمر بن عبـد العزيز : الفكرة في نعم الله عزَّ وجلَّ من أفضل العبادة .

وقال عبد الله بن المبارك يومـاً لسهل بن علي ورآه سـاكنـاً متفكِّراً : أين بلغت ؟ قـال : الصِّراط . وقـال بشر : لـو تفكَّر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عزَّ وجلَّ .

وعن ابن عبـاس : ركعتـان متقصـدتـان في تفكُّر خير من قيـام ليلـة بلا قلب . وبينـا أبو شريح يمشي إذ جلس ، فتقنـع بكسائه فجعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكَّرت في ذهاب عمري وقلَّة عملي واقتراب أجلي .

وقـال أبو سليمـان : عـوِّدوا أعينكم البكاء وقلـوبكم التَّفكُّر .

وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر يزيد الخوف .

وقال ابن عباس : التَّفكُّر في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشرِّ يدعو إلى تركه .

ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أقبل كلام حكيم ولكن أنظر إلى همِّه وهواه فإذا كان همّه وهواه لي جعلت صمته تفكُّراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم[1] .

وقال الحسن : إنَّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذِّكر على الفكر ، وبالفكر على الذِّكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة .

وقال إسحاق بن خلف : كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء ، يتفكر في ملكوت السموات والأرض

(١) نورد ههنا للاستئناس ما جاء في سفر الحكمة من العهد القديم في الكتاب المقدس : « فالتّأمُّل فيها (في الحكمة) كمال الفطنة ، ومَن سهر لأجلها فلا يلبث له همّ »

حكمة/١٦ .

وهـو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقـع في دار جـار لـه . قـال فوثب صاحب الدار من فراشـه عريـانـاً وبيـده سيف وظنَّ أنـه لص ، فلمـا نظر إلى داود رجـع ووضـع السيف وقـال : من ذا الذي طرحك من السطح ؟ قال : ما شعرت بذلك .

وقال الجنيـد : أشرف المجـالس وأعلاهـا الجلوس مع الفكرة في ميـدان التـوحيـد ، والتَّنسم بنسيم المعرفـة ، والشرب بكأس المحبـة من بحر الـوداد ، والنظر بحسن الظن لله عـزَّ وجـلَّ ، ثم قال : يالها من مجالس ما أجلَّها ومن شراب مـا ألـذه ، طوبى لمن رُزِقَه .

وقـال الشـافعي رحمـه الله تعـالى : استعينـوا على الكـلام بالصَّمت ، وعلى الاستنباط بالفكر . وقـال أيضـاً : صحـة النظر في الأمـور نجـاة من الغرور ، والعـزم في الرأي سـلامـة من التفريـط والنـدم ، والرويـة والفكر يكشفـان عن الحـزم والفطنة ، ومشاورة الحكمـاء ثبـات في النفس وقوة في البصيرة ، ففكِّرْ قبـل أن تعـزم ، وتـدبَّر قبـل أن تهجم ، وشـاوِرْ قبـل أن تقدم .

وقال أيضاً : الفضائل أربع :

إحداها : الحكمة وقوامها في الفكرة .
والثانية : العفَّة وقوامها في الشهوة .
والثالثة : القوة وقوامها في الغضب .
والرابعة : العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس .

فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وفي بيان مجاريها .

حقيقة الفكر والتَّفكُّر

١ ـ معنى الفكر :

اعلم أنَّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[1] ، ومثاله أنَّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة ، فله طريقان :

أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلِّده ويصدِّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرَّد قوله ، وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة .

---

(١) هذا كلام مهم ، يذكِّرنا بجدلية هيغل . نرجو من القارئ الكريم أن يأخذه بعين الاعتبار لأننا سنعود إليه بشيء من تفصيل في فقرة توالد المعرفة .

والطريق الثاني : أن يعرف أنَّ الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أنَّ الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أنَّ الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنَّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكُّراً واعتباراً وتذكُّراً ونظراً وتأمُّلاً وتدبُّراً . أمّا التَّدبر والتَّأمُّل والتَّفكُّر : فعبارات مترادفة[1] على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة .

---

(١) التَّدبُّر : النظر في عاقبة الأمر . وفي غريب القرآن للطريحي : يتدبَّرون القرآن : أي يتأمَّلون معانيه ، من التَّدبُّر وهو النَّظر في إدبار الأمور وتأملها .
التَّأمُّل : التثبُّت في الأمر والنَّظر . وفي الكلِّيّات التَّأمُّل : استعمال الفكر .
التَّفكُّر : النَّظر في الدلائل والتَّأمُّل . والفكر : إعمال النظر في شيء . وفي الكلِّيّات أن الفكر : حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب .

٢ ـ التَّذكُّر والاعتبار والنَّظر :

وأما اسم التّذكر والاعتبار والنّظر : فهي مختلفة المعاني[(١)] وإن كان أصل المسمّى واحداً ؛ كما أنَّ اسم : الصارم ، والمهند ، والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة[(٢)] . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدلُّ

(١) التّذكُّر : تذكّر بمعنى ذكر ، والذّكر : حفظ الشيء وتذكّره ، أوجريه على اللسان .
الاعتبار : التّعجب ، اعتبر منه تعجب ، العبرة : تعجب ، وكذلك الاعتبار : الاتّعاظ .
النّظر : الفكر في الشيء تقدره وتقيسه .

(٢) ثمّة خلاف بين العلماء القدامى حول إثبات التّرادف وإنكاره . قال أبو علي الفارسي : « كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ومنهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : احفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسّم أبو علي وقال : ماأحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف . قال ابن خالويه : فأين المهنّد والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات .
وقد ذهب أيضاً بعض العلماء في أواخر القرن الثالث الهجري والرابع كثعلب وابن فارس إلى إنكار الترادف والتماس الفروق الدقيقة بين الكلمات التي يظن فيها اتّحاد المعنى .

عليه من حيث نسبته إلى موضعه ، والسيف يدلُّ دلالـة مطلقـة من غير إشعار بهذه الزوائد .

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحضـار المعرفتين من حيث إنَّـه يعبر منهما إلى معرفـة ثـالثـة ، وإن لم يقع العبـور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التَّـذكُّر ، لا اسم : الاعتبار .

وأمّـا النَّظر والتَّفكُّر فيقـع عليـه من حيث إنَّ فيــه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثـة لا يسمى نـاظراً ، فكل متفكِّر هـو متـذكِّر ، وليس كل متـذكِّر متفكِّراً ، وفـائـدة التِّــــذكار تكرار المعـــارف على القلب لترســخ ولا تنمحيَ عن القلب . وفـائـدة التَّفكُّر تكثير العلم واستجـلاب معرفــة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التَّذكُّر والتَّفكُّر .

٣ ـ توالد المعرفة :

والمعــــارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فـالمعرفـة نتـاج المعرفـة .

فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل في ذلك نتاج آخر[1] . وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية[1] ، وإنَّما تنسدُّ طريق زيادة المعارف بالموت ، أو بالعوائق ، وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير .

---

(١) يشير هذا الكلام إلى شيء من فكر الغزالي الفلسفي ، وعلينا أن نتذكر أن الغزالي كان قد اهتم بالفلسفة اهتماماً كبيراً ، وتعمق في علومها ، وكانت تجربته الفلسفية معقدة أدت في النهاية إلى انقلاب شامل على الفلسفة واعتقاد مذهب التصوف ، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب من نتاج الغزالي في مرحلته الصوفية ؛ إلا أننا لانعدم أن نجد فيه بعض ما يذكّرنا بالغزالي فيلسوفاً ككلامه هذا الذي نقف عليه الآن . والشيء المثير حقّاً هو قرب كلامه هذا من جوهر نظرية هيغل الجدلية أو ما يسمى بالديالكتيك ، فالغزالي يرى أن ازدواج معرفتين ينتج معرفة ثالثة ، وهي التي تسمى عند هيغل بالتركيب .
بقي أن نشير إلى أن هيغل كان يؤمن في فلسفته بوجود فكر كلّي مدبّر هو مصدر كل المخلوقات ، ومن ثم فهو يؤمن بوجود ذات إلهية وإن اختلفت طريقة التعبير أو المسميات . ثم جاء الماركسيون فيما بعد وزعموا أن هيغل وضع الديالكتيك على رأسه مقلوباً وأنهم جاؤوا ليصححوا الوضع .

وأمّا أكثر الناس فإنّما منعوا الزيـادة في العلوم لفقـدهم رأس المال وهو المعارف التي بهـا تستثمر العلوم ، كالـذي لا بضـاعـة لـه فإنـه لا يقـدر على الربح ، وقـد يملـك البضـاعـة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئـاً ، فكـذلـك قـد يكون معـه من المعـارف مـا هـو رأس مـال العلـوم ولكن ليس يحسن استعمالهـا وتأليفها و إيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تـارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة[1] ، كما كان الأنبيـاء صلوات الله عليهم

---

(١) ليس هذا الكلام بعيداً عن الحقائق العلمية ، فما دام الإنسـان قـد امتلـك أرضيـة معرفيـة ، أو مـا أسماه الغـزالي برأس المـال أو المعـارف ، فليس مستحيلاً أن يستطيع أن يهتدي بفطرته وموهبته إلى ذلك الطريق الـذي يمكّنه من تأليف هذه المعارف واستثمارها استثمـاراً يفضي إلى نتـاج علمي . ولكن هذه الموهبة لا تتحصل لكل النـاس ، بل هي خـاصـة بـالعبـاقرة ، وقد وعى الغزالي هذا الأمر وذلك حينما قال : (وذلك عزيز جـداً) . ثم إن التاريخ العلمي للإنسانية يروي لنا نماذج عن هؤلاء العباقرة الموهوبين العلماء الذين نبذتهم المدارس أو نبـذوهـا واعتمـدوا على موهبتهم فـاكتشفوا أهم النظريات العلمية .

أجمعين ـ وذلك عزيز جداً ـ وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلاّ عن المعرفتين السابقتين ، وهو أنَّ الأبقى أولى بالإيثار ، وأنَّ الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أنَّ الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة .

ثمرة الفكر

وأمّا ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة هي العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح ، فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر .

فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنَّه خير من الذِّكر والتَّذكر ، لأنَّ الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل : هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل : هو الذي يحدث مشاهدة

وتقوى ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَعَلَّهُم يَتَّقونَ أو يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً ﴾[1] .

وإنْ أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر يعرِّفنا أن الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال ، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

ـ درجات التفكر وتغير حال القلب :

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في إطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فهاهُنا خمس درجات :

(١) من سورة طه ، الآية ١١٣ :
﴿ وَكَذلِكَ أنزَلْناهُ قُرآناً عَرَبيّاً وصَرَّفْنا فيهِ منَ الوَعيدِ لَعَلَّهُم يَتَّقونَ أوْ يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً ﴾ .

(أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب .

(وثانيتها) التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما .

(والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها .

(الرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة .

(والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدَّد له من الحال .

ـ نور المعرفة :

فكما يضرب الحجر على الحديد ؛ فيخرج منه نار يستضيء بها ؛ فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة ؛ وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر الحديد ضرباً مخصوصاً ، فنبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه ، كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه . ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى

حـال القلب كما ينتهض العـاجز عن العمل بسبب الظلمـة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره .

ـ العلوم والأحوال :

فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهـايـة لهـا ، والأحـوال التي تتصـوَّر أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرهـا . ولهذا لو أراد مريـد أن يحصر فنون الفكر ومجـاريـه ؛ وأنَّه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه ؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراتـه غير متناهية . نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بـالإضـافـة إلى مهمات العلوم الـدينيـة ، وبـالإضـافـة إلى الأحـوال التي هي مقـامـات السـالكين ، ويكـون ذلـك ضبطـاً جمليّـاً ، فـإن تفصيـل ذلـك يستـدعي شرح العلـوم كلّهـا ، وجملـة هـذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على العلوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصـة . فلنشر إلى ضبـط الجـامع فيهـا ليحصل الوقوف على مجاري الفكر .

مجاري الفكر

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين ، وإنما غرضنا فيما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرَّبّ تعالى ؛ فجميع أفكار العبد إمّا أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين .

وما يتعلق بالعبد إمّا أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرَّب تعالى ، أو فيما هو مكروه ، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين .

وما يتعلق بالرَّبّ تعالى إمّا أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإمّا أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر في معشوقه ؛ فإمّا أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإمّا أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذة ومقوياً لمحبته . وإن تفكر في نفسه ؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو في الصفات التي تقرِّبه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فكذلك خارج عن حدِّ العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ، ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره . فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً .

أوّلاً : التفكر في صفات النفس وأفعالها

فلنبدأ بـالقسم الأوّل وهو تفكره في صفـات نفسـه وأفعـال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فـإن هـذا الفكر هو الـذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهـذا الكتـاب ، وأمّـا القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحـد ممـا هو مكروه عنـد الله أو محبـوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصي . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلّها القلب .

والمعـاصي : تنقسم إلى مـا يتعلـق بـالأعضـاء السبعــة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالـد والسكــون في المسكن الحرام ، ويجب في كل واحـــد من المكا التفكر في ثلاثة أمور :

الأول : التفكر في أنّه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرُبَّ شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر .

الثاني : التفكر في أنّه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه ؟

الثالث : أنّ هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه ، أو هو متعرِّض له في الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات ، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في الأقسام على مئة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إمّا في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

أ ـ المعاصي :

ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه

السبعة تفصيلاً ، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها ؟

١ ـ معصية اللسان :

فينظر في اللسان ويقول إنّه متعرِّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني ، إلى غير ذلك من المكاره ، فيقرِّر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر في شواهد القرآن والسُّنة على شدَّة العذاب فيها ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ، ويعلم أنّه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد(١) ، أو بأن لا يجالس

---

(١) يجب التنبيه ههنا على أن هذا الحل هو سلبي هَرَبِيّ ، فالله عزّ وجلّ لم يخلق الإنسان لينعزل وينفرد ؛ بل ليشارك أخاه الإنسان ويعمل وينتج ويعمر الأرض ، وإنما يتم الاحتراز من الغيبة والكذب والمماراة وما شاكل ذلك بتدريب النفس وتهذيبها وبقوة الإرادة والتحكُّم بالسلوك ، وإلا فما دور العقل إذا لم يعقل الإنسان ويهذب سلوكه ؟!

إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلاّ فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له ، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز .

٢ ـ معصية السمع :

ويتفكر في سمعه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وإن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر .

٣ ـ معصية البطن :

فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه ، إنّه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إمّا بكثرة الأكل من الحلال فإنّ ذلك مكروه عند الله ومقوٍّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإمّا بأكل الحرام أو الشبهة ، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها

ضائعة مع الأكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلِّها ، وأنّ الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام[1] كما ورد الخبر به .

فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء . فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

ب ـ الطاعات :

وأما النوع الثاني وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنّه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً :

---

(١) حديث ضعيف ؛ لأنه منقطع ، ففي إسناده رجل مبهم ، وقد أخرجه أحمد .

١ ـ طاعة العين :

إن العين خلقت للنظر في ملكـوت السمـوات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنـة رسـولـه ﷺ ، وأنـا قـادر على أن أشغـل العين بمطـالعـة القرآن والسُّنـة فلم لا أفعلـه ؟ وأنـا قـادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله ؟

٢ ـ طاعة السمع :

وكـذلـك يقول في سمعـه إني قـادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمـة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فمـا لي أُعَطِّلـه وقـد أنعم الله علي بـه وأودعنيـه لأشكره ؟ فمـا لي أكفر نعمـة الله فيـه بتضييعه أو تعطيله ؟

٣ ـ طاعة اللسـان :

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بـالتعليم والوعـظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ،

وبـالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخـال السرور على قلب زيـد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة .

٤ ـ طاعة المال :

وكذلك يتفكر في مالـه فيقول : أنـا قـادر على أن أتصـدَّق بـالمـال الفـلاني فـإني مستغنٍ عنــه ، ومهما احتجت إليــه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجاً الآن فأنـا إلى ثواب الإيثـار أحوج مني إلى ذلك المال .

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بـدنـه وأموالـه ، بل عن دوابه وغلمـانـه وأولاده ، فـإن كل ذلـك أدواتـه وأسبـابـه ، ويقـدر على أن يطيع الله تعـالى بهـا ، فيستنبـط بـدقيـق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بهـا ، ويتفكر فيما يرغبـه في البـدار إلى تلك الطـاعـات ، ويتفكر في إخلاص النيـة فيهـا ويطلب لهـا مظانّ الاستحقـاق حتى يزكو بهـا عملـه ، وقِس على هـذا سـائر الطاعات .

جـ ـ المهلكات :

وأمّا النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب ، وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظّنّ والغفلة والغرور وغير ذلك ؛ ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظنّ أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف ، فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تُجَرَّب بحمل حزمة حطب في السوق ، كما كان الأوّلون يجرِّبون به أنفسهم .

وإذا ادَّعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجرِّبها في كظم الغيظ ، وكذلك في سائر الصفات . وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ، فإذا دلّت العلامة على وجودها فكّر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبيّن أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة .

كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنّما عمل ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي ، وكل ذلك ليس مني ولا إليَّ ، وإنّما هو من خلق الله وفضله علي ، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي ، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي ، فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي ؟ فإذا أحسَّ في نفسه بالكبر[1] قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لِمَ ترينَ نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت ، وكم من كافر في الحال يموت مقرّباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر ، وكم من مسلم يموت شقيّاً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة[2] !

---

(١) ثمة قول عظيم لأحد الصحابة رضي الله عنهم يقول فيما معناه :
« مالي أرى ابن آدم يتكبّر وهو قد جرى في مجرى البول مرتين ...؟! » .

(٢) ثمة حديث قريب من هذا المعنى أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أ ر رسول الله ﷺ قال :
« إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة .. » .

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين . وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ، ولما اتصفت به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرَّبين أبعد . وكذلك يقرِّر على نفسه في الغضب ، ثم يتفكر في طريق العلاج ، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدَّ له من تحصيل المعرفة .

د ـ المنجياتُ :

وأمّا النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف ، والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص ، والصدق في الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله ، والشوق إليه ، والخشوع والتواضع له .

فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى ؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار .

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً ، وليتفكر فيها ، وليجمعها على نفسه ، وليعظمها في قلبه . ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها ، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينبعث له حال الندم .

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه . وإذا أراد حال المحبة والشوق ، فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر .

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر في الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال

منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ، ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير ، ثم في الصراط ودقَّته وحدَّته ، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار .

ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنَّهم كلَّما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً وهلم جرّاً ، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها .

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء ، فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم .

ـ قِراءَةُ القرآن بالتّفَكُّر :

فهكـذا طريـق الفكر الـذي يطلب بـه العلـوم التي تثمر اجتلاب الأحوال المحبوبة أو التنزه عن الصفات المذمومـة . وقـد ذكرنا في كل واحد من هـذه الأحوال كتابـاً مفرداً يستعـان بـه على تفصيل الفكر ، أما بذكر مجـامعـه فلا يوجـد فيـه أنفع من قراءة القرآن بالتفكُّر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيـه شفاء للعالمين ، وفيـه مـا يورث الخوف والرجـاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة .

فينبغي أن يقرأه العبـد ويردد الآيـة التي هـو محتـاج إلى التفكُّر فيهـا مرةً بعـد أخرى ولـو مئـة مرة ! فقراءة آيـة بتفكر وفهم خير من ختمـة بغير تـدبُّر وفهم ، فليتوقف في التـأمل فيهـا ولـو ليلـةً واحـدة ، فـإن تحت كل كلمـة منهـا أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بـدقيق الفكر عن صفـاء القلب بعـد صـدق المعاملة .

ـ مُطالَعَةُ أحاديثِ الرَّسول ﷺ :

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره .

وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ : « إنّ روح القدس نفث في روعي : أَحبِبْ من أحببْتَ فإنك مفارِقُه ، وعِشْ ما شئْتَ فإنَّك مَيِّت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به »(١) . فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ

---

(١) ثمة حديث آخر قريب من هذا الحديث يروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
« إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها » . وهو حديث صحيح رواه ابن ماجه عن أبي حميد الساعدي مطولاً ومختصراً ، وأبو يعلى عن أبي هريرة ، وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي أمامة ، وابن حبان والحاكم وسواهم .
أما الحديث الذي ساقه الغزالي (أحبب من أحببت ...) فضعيف ، وقد أخرجه الطبراني في الأوسط والأصغر .

لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولَحَالَ ذلك بينهم وبين التَّلفت إلى الدنيا بالكلِّية .

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزِّه باطنه وظاهره عن المكاره .

وليعلم أن هذا مع أنه أفضل سائر العبادات فليس هوله غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدِّيقين ، وهو التَّنعُّم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله ، واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنّه لا يتفرَّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشّاق .

- تَعميرُ الباطِن :

فأمّا ما ذكرناه فهو تفكُّر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعَّم بالقرب ؟ ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي ، فلقيه الحسن بن منصور وقال : فيمَ أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل ، فقال الحسن : أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد ؟ فالفناء في الواحد الحق هو مقصد غاية الطالبين ومنتهى نعيم الصّدّيقين . وأمّا التنزّه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأمّا الاتّصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة وجهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرك ، في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغي أن تفهم طريقة الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلاّ خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال

الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ، ولكنْ للمجالسة أقوام آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربِّه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساءً ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقرِّبة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد ينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ، ويعرض نفسه عليها كل يوم .

ـ عشرونَ خِصلةً في الْمُهلكات والْمُنجيات :

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهي : البخل ، والكِبْر ، والعُجْبُ ، والرِّياء ، والْحَسَد ، وشدّة الغضب ، وشَرَهِ الطعام ، وشره الوِقاع ، وحب المال ، وحب الجاه .

ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر البلاء ، والرِّضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال ا·

والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الْخُلُق مع الْخَلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة : عشر مذمومة ، وعشر محمودة ، فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أنَّ ذلك لم يتم إلاّ بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخطَّ على الجميع ، وكذا يطلب من نفسه أن يتصف بالمنجيات ، فإذا اتَّصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خطَّ عليها واشتغل بالباقي ، وهذا ما يحتاج إليه المريد المشمِّر .

ـ الظَّاهِرُ منَ الْمَعَاصي :

وأمّا أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة ، كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة ، والمراء والثناء على النفس ، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء ، والمداهنة مع الخلق في ترك

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنَّ أكثر من يعدُّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاصٍ هم بمعزل عنها .

ـ مِن مَعَاصي العُلَماء :

مثاله : العالم الورع ، فإنَّه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدَّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلاَّ الصِّدِّيقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ، وذلك من المهلكات .

وإن رُدَّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إنَّ غيظك من حيث إنّه ردّ الحق

وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرَّد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين .

والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله . فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وأيّما مخدوع ، وإنّما يدور حول طلب الجاه وهو يظنُّ أن مطلبه الدين !

ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ، ويكون بلقائه أشدّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره ، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة .

وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير

النساء ، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلاميذه إلى غيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه ، وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ، وإنّما ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إمّا مالك وإمّا هالك ، ولا مطمع له في سلامة العوام .

فمن أحَسَّ في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول[1] والمدافعة للفتاوي مهما سئل . فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعاً من

(١) مرة أخرى يدعو الغزالي إلى حل سلبي هروبي ... فإن كان في الرجل العالم ضربٌ من صفات سيئة كالتغاير والغرور وطلب الشهرة والخيلاء وما شاكل ذلك ، فينبغي أن يحارب في نفسه هذه الصفات ، ويصلح حال نفسه ، ويتخلص من تيك الصفات الفاسدة ثم ينبري للعلم لينتفع الناس بعلمه . هكذا يكون إصلاح الأمر ، وليس يكون بالانعزال والانفراد وطلب الخمول !!. وفي الحديث الشريف أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« مَن سئل علماً يعلمه فكتمه أُلجم بلجام من نار » . رواه الترمذي ، وروى أبو داود نحوه .

أصحـــاب رسـول الله ﷺ كلهم مفتـون ، وكانــوا يتــدافعــون الفتوى . ولـك من كان يفتي كان يـودُّ أن يكفيـه غيره . وعنـد هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ؛ فإن هذا الباب لو فتح لانـدرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسـلام مستغنٍ عني ، وأمّـا أنـا فلست مستغنيـاً عن إصلاح قلبي .

وأمّـا انـدراس العلم فخيـال يـدل على غـايـة الجهل ، فـإن الناس لو حبسوا في السجن ، وقيدوا بـالقيود ، وتوعـدوا بـالنـار على طلب العلم ، لكان حب الريـاسـة والعلـوّ يحملهم على كسر القيود ، وهـدم حيطـان الحصون ، والخروج منهـا ، والاشتغـال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مـادام الشيطـان يحبب إلى الخلق الريـاسـة ، والشيطـان لا يفتر عن عملـه إلى يوم القيـامـة . بـل ينتهض لنشر العلم أقــوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قــــال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله يؤيِّـد هـذا الـدين بـأقوام لا خـلاق لهم »[1] . و « إنَّ الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر »[2] .

(١) حديث صحيح الإسناد أخرجه النسائي برواية أنس بن مالك .

(٢) هذا الحديث هو الجزء الأخير من حديث طويل أخرجه مسلم والبخـاري

فلا ينبغي أن يغترَّ العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق . قال ﷺ : « حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل »[1] . وقال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من

= وتمامه :

أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : « شهدنا مع رسول الله ﷺ خَيْبَرَ ، فقال لرجل ممن يُدْعى بالإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتالَ قاتل الرجلُ قتالاً شديداً ، فأصابته جراحة ، فقيل له : يا رسول الله ، الذي قلتَ له آنفاً إنه من أهل النار ، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات ؟ فقال النبي ﷺ : إلى النار ، فكاد بعضُ المسلمين أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك ، إذ قيل له : إنه لم يمت ، ولكن به جراح شديدة ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح ، فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ ، فقال : الله أكبر ، أشهد إني عبد الله ورسوله ، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : إنه لن يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله لَيُؤَيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

(١) لم أجده ، بيد أن ثمة حديثاً لعله قريب من هذا برواية أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبك الشيء يعمي أو يصم » . وقد رواه البيهقي عن الحسن البصري مرسلاً ، وإسناده إلى الحسن حسن . =

حب الجاه والمال في دين المرء المسلم »[1] . ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلاّ بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم .

فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقي . فأمّا أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوِّي إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً إنَّ هؤلاء

(١) حديث حسن صحيح ، أخرجه الترمذي برواية كعب بن مالك رضي الله عنه مع اختلاف طفيف في اللفظ ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » . وفي رواية أخرى عن عبد الله بن كعب عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال :
« ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من الحرص على المال والحسب في دين المسلم ، وإن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .
ولم يصحح إلا صدر الحديث دون ذكر الحسد . رواه أحمد في مسنده والنسائي وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه .

لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنـا أعمـال من يؤمنون بـالجنـة والنار ، فإن من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه . وقد علمنـا أن الهرب من النـار بترك الشبهـات والحرام ؛ وبترك المعاصي ، ونحن منهمكون فيها ، وأنَّ طالب الجنـة بتكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصِّرون في الفرائض منها . فلم يحصل لنـا من ثمرة العلم إلاّ أنـه يُقتَـدى بنـا في الحرص على الـدنيـا والتكالب عليها .

ويقـال : لـو كان هـذا مـذمـومـاً لكان العلمـاء أحـق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنـا ذنوبنـا . فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لوتفكرنا . فنسأل الله تعـالى أن يصلحنا ، ويصلح بنا ، ويوفقنا للتوبـة قبل أن يتوفـانـا ، إنَّـه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذي مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منهـا إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلـك إلاّ بعـــد الانفكاك من جميـع المهلكات والاتِّصـــاف بجميـع

المنجيات ، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدّراً مقطوعاً ، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغِّص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التنعم إلاّ بإخراج الحيات والعقارب من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوِّشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربِّه تعالى .

ثانياً : التفكر في جلال الله وعظمته

أ ـ التفكر في الذات الإلهية :

الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامات : المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله ، وذلك لأنَّ العقول تتحيَّر فيه فلا يطيق مدَّ البصر إليه إلاّ الصِّدِّيقون ، ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه البتة ، بل يختفي نهاراً ، وإنّما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض .

وأحوال الصِّدِّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر في النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر .

وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لا يتعرَّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أنَّ الله تعالى مقدَّس عن المكان ، ومنزَّه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ؛ قد حيَّر عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته .

بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذا قيل لهم : إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم . فأنكروا هذا وظنّوا أنَّ ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إنَّ هذا وصف بطيخ هندي لا وصف إله ؛ لِظَنِّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء ، وهذا لأنَّ الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه .

نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم أنَّ غايته أنْ يقدِّر ذلك في حقِّ الله ـ تعالى وتقدَّس ـ حتى يفهم العظمة .

بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زَمِناً لا يقدر على الطيران ؟ أوَ يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري ؟!

وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون .

٢ ـ التفكر في أفعال الله وقدرته :

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري

الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه ، فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدُّسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته على نفاذ مشيئته وقدرته .

فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإنّا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنّا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما ، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر .

وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلّها نور من أنوار ذاته ـ تعالى وتقدّس ـ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس

فيـه و يمكن النظر إليهـا ، فيكون المـاء واسطـة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها ، فكذلـك الأفعـال واسطـة نشاهد فيهـا صفـات الفـاعل ، ولا نبهر بـأنوار الـذات بعـد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهـذا سرُّ قولـه ﷺ : « تفكَّروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى »[1] .

---

(١) ورد هذا الحديث سابقاً ، انظر الحاشية رقم (٢) ص ٢٤ .

كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أنَّ كلَّ ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض[1] وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلالته وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنَّه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره[2] . ولكن نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

---

(١) الجوهر والعرض مقولات فلسفية تعود إلى أرسطو الذي رأى أن الوجود إما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، ممكناً أو جائزاً ... وما شاكل ذلك من الأجناس العشرة العليا التي أطلق عليها اسم المقولات ، أولها الجوهر ، ثم الأعراض وهي تسعة : الكم والكيف والأين والمتى والفعل والانفعال والوضع والإضافة والملك .
والجوهر هو الأحق باسم الوجود ، أما العرض فهو تابع للجواهر لأنه حال من أحوال الجوهر وصفة من صفاته . وكذلك كان ابن سينا يرى أن أولى الأشياء بالوجود هي الجواهر ثم الأعراض .. لكنه قسم الجواهر إلى أنواع كالعقلية والنفسية والصورية ...

(٢) هذا تضمين لمعنى الآية الكريمة : =

(الموجودات المخلوقة وأقسامها) :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها ، فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى : ﴿ ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمونَ ﴾[1] ، ﴿ سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأرضُ ومِن أنفُسِهِم ومِمّا لا يَعْلَمونَ ﴾[2] . وقال : ﴿ ونُنْشِئَكُم فيما لا تَعْلَمونَ ﴾[3] .

وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ، ولا يعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها .

وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر ؛ أمّا الذي لا ندركه بالبصر فكما الملائكة والجن

= ﴿ قُل لو كانَ البحرُ مِداداً لِكَلماتِ رَبّي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنفدَ كَلِماتُ رَبّي ولو جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً .. ﴾ الكهف : ١٠٩ .

(١) من سورة النحل الآية (٨) وتمامها :
﴿ والْخَيلَ والبِغالَ والْحَميرَ لِتَرْكَبوها وزِينَة ، ويَخلُقُ ما لا تَعْلَمونَ ﴾ .

(٢) من سورة يس ، الآية (٣٦) .

(٣) سورة الواقعة ، الآية (٦١) وتمامها :
﴿ على أن نُبَدّل أمثالَكُم ونُنْشِئَكُم في ما لا تَعْلَمونَ ﴾ .

والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك . ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض . فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما ، فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجمع ذلك مجال الفكر .

فلا تتحرك ذرّة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلاّ والله تعالى هو محركها ، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، كل ذلك

شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ ومِن آياتِهِ ﴾[2] ومن أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات .

---

(1) من سورة آل عمران ـ الآية : ١٩٠ .

(2) تكررت هذه العبارة في إحدى عشرة آية من ثلاث سور ، نذكرها تباعاً :
الرُّوم : ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٤٦ ، فُصِّلت : ٣٧ ـ ٣٩ ، الشُّورى : ٢٩ ـ ٣٢ .

أولاً : التفكر في خلق الإنسان

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيرة وأنت غافل عنه . فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟

وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : ﴿ وفي أنْفُسِكُم أفَلا تُبْصِرونَ ﴾[1] ، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ ☆ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ ☆ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ☆ ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ ، ثُمَّ إذا شاءَ أنشَرَهُ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ومِن آياتِهِ أن خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرونَ ﴾[3] .

---

(١) من سورة الذّاريات ، الآية : (٢١) .

(٢) من سورة عبس ، الآية : (٢٢) .

(٣) من سورة الرُّوم ، الآية : (٢٠) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَم يكُ نُطْفَةً من مَنِيٍّ يُمْنى ☆ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَم نَخْلُقْكُم مِن ماءٍ مَهينٍ ☆ فَجَعَلْناهُ في قَرارٍ مَكينٍ ☆ إلى قَدَرٍ مَعْلومٍ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْناهُ مِن نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ إنّا خَلَقْنا الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ أمْشاجٍ ﴾[4] .

ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى : ﴿ ولَقَد خَلَقْنا الإنسانَ مِن

---

(١) من سورة القيامة ، الآية : (٣٧) .
(٢) من سورة المرسلات ، الآية : (٢٠ ـ ٢٢) .
(٣) من سورة يس ، الآية : (٧٧) .
(٤) من سورة الإنسان ، الآية : (٢) .

سُلالةٍ مِن طينٍ ☆ ثُمَّ جَعَلْنـاهُ نُطْفَـةً في قَرارٍ مَكينٍ ☆ ثُمَّ خَلَقْنـا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾[1] الآية .

أ ـ النطفة واستخراجها :

فتكرير ذكر النطفة في الكتـاب العزيز ليس ليسمع لفظـه ويترك التفكر في معناه ، فـانظر الآن إلى النطفـة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت سـاعـة ليضربهـا الهواء فسـدت وأنتنت ـ كيف أخرجها ربُّ الأربـاب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبـة في قلوبهم ، وكيف قـادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركـة الـوقـاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعمـاق العروق وجمعه في الرَّحم ؟

ب ـ من النطفة إلى العينين :

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بمـاء الحيض وغـذاه حتى نما وربـا وكبر ، وكيف جعل النطفـة وهي بيضـاء مشرقـة

(١) من سورة المؤمنون ، الآية : (١٣ ـ ١٤) .

علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم .

ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعصاب الظاهرة ، فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل[1] .

---

(١) عند التلقيح يتم اندماج النطفة ، من الذكر بالبويضة من الأنثى فتتشكل البيضة الملقحة التي تنقسم نواتها إلى خليتين ، ثم تتعرض هاتان الخليتان للانقسام أيضاً ، فتعطي التويتة . ثم تنغرس التويتة المنقسمة في الغشاء المخاطي للرحم . وتنمو التويتة بسرعة بعد انغرازها وتتكاثر الخلايا وتتمايز لتكوين الجنين وأغشيته . وتتكون أرومة المخ عند الجنين في دور مبكر من الحياة الرحمية ، وينمو بسرعة ، وتنشأ بعض المنعكسات الحركية المتأتية من تنبه الجهاز العصبي العضلي في الشهرين الثاني والثالث ، ويأخذ الجسم شكله التام ، وتنمو بداءات الأطراف ، ويلاحظ عليه بدايات أولية للعينين والأنف والفم ... وفي الشهر الرابع تتميز الأعضاء التناسلية ، وتصبح الأطراف قادرة على الحركة ، كما يمكن ملاحظة الأصابع على اليدين والرجلين . وفي الشهر الخامس يكون قد تشكّل شكل =

ثم كيف ركَّب الأعضـاء البـاطنـة من القلب ، والمعـدة والكبد والطحال والرئـة والرحم والمثـانـة والأمعـاء ، كل واحـد على شكل مخصوص لعمل مخصوص .

ثم كيف قسَّم كل عضـو من هـذه الأعضـاء بـأقسـام أخر ؛ فركَّب العين في سبـع طبقـات ، لكل طبقـة وصف مخصـوص وهيئة مخصوصة لوفقدت طبقة منها أو زالت صفـة من صفـاتهـا تعطلت العين عن الإبصـار[1] ، فلـوذهبنـا إلى أن نصف مـا في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا تقضي فيه الأعمار .

= وجه الجنين والجلد والأغشية المخاطية وأوتار العضلات وتبلور النخاع الشوكي .

(١) تتألف العين من عدة طبقات ، الأولى طبقة خارجية تتكوّن من قسمين أمامي هو القرنية ، وخلفي هو الصلبة .
والثانية طبقة متوسطة تحوي كمية كبيرة من الأوعية الدموية نميز فيها ثلاث أقسام : قسم أمامي هو القزحية حيث تتوضع في مركزها فتحة دائرية هي الحدقة ، وقسم متوسط هو الجسم الهدبي ، وقسم خلفي هو لا المشيمة .
والثالثة طبقة داخلية تدعى الشبكية . وهناك العدسة البلورية للعين ، وهي محدبة الوجهين خالية من الأوعية الدموية ، بالإضافة إلى الخلط =

جـ ـ الهيكل العظمي :

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدَّرها بمقادير وأشكال مختلفة ، فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوَّف ومصمت وعريض ودقيق .

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقر للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له(١) .

ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر

= الزجاجي وهو جوف كرة العين ويحوي مادة هلامية تساعد العين على الاحتفاظ بكرويتها .

(١) تتصل العظام بعضها ببعض بواسطة نسيج ضام ليفي كالأربطة ، ويتصل قسم آخر منها بواسطة نسيج غضروفي .

حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك[1] .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها ، وقد ركّبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، فألّف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس - كما تراه - فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحي الأعلى ، واثنان للحي الأسفل[2] ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح

(١) تُعَدُّ المفاصل من أكثر أنواع اتصالات العظام انتشاراً في جسم الإنسان ، وهي التي تساعد الإنسان على الحركة .

(٢) تقسم عظام الرأس (الجمجمة) إلى قسم قحفي وآخر وجهي ، وينتمي إلى عظام القسم القحفي زوجان عظميّان هما الجداران والصدغيّان ، وأربعة مفردة هي : الجبهي والغربالي والقفوي والوتدي . أما عظام القسم الوجهي فهي ستة أزواج : الفك العلوي والعظم الوجني والأنفي والطفري وعظم الحنك والقرين السفلي . وكذلك عظمان مفردان هما الميكعة والفك السفلي ..
وبذلك أصبح المجموع (٢٢) عظماً وهو مساو لمجموع العظام التي ذكرها الغزالي .

للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا .

ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركّبها من سبع خرزات[1] مجوَّفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق على بعض - ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركّب الرقبة على الظهر ، وركّب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركّب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء[2] .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام الفخذين والساقين وأصابع

---

(١) المقصود بذلك فقرات القسم العلوي من العمود الفقري ، وهي فقرات الرقبة ، وعددها سبع فعلاً .

(٢) يتألف العمود الفقري - عدا القسم الرقبي ذي سبع الفقرات - من القسم الصدري ١٢ فقرة ، والقطني ٥ فقرات ، والعجزي ٥ فقرات ، والعصعصي ٤ - ٥ فقرات . ومجموع الفقرات كلها يقترب من العدد الذي ذكره الغزالي .

الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلـك ، ومجموع عـدد العظـام في بدن الإنسان مئتـا عظم وثمـانيـة وأربعون عظماً ، سوى العظـام الصغيرة التي حشي بهـا خلل المفـاصل . فـانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة ؟!

وليس المقصود من ذكر أعداد العظـام أن يعرف عـددهـا ، فإنَّ هذا علم قريب يعرفه الأطبـاء والمشرحون ، إنمـا الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنَّه كيف قدَّرها ودبَّرهـا وخـالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنَّه لو زاد عليهـا واحـداً لكان وبـالاً على الإنسـان يحتـاج إلى قلعـه ، ولو نقّص منها واحداً لكان نقصاناً يحتـاج إلى جبره ، فـالطبيب ينظر فيهـا ليعرف وجـه العـلاج في جبرهـا وأهـل البصـائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوِّرهـا فشتّـان بين النظرين .

د ـ العضلات :

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظـام وهي العضـلات ، فخلـق في بـدن الإنسـان خمسمئـة عضلـة وتسعـاً

وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية [1] ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها .

فأربع وعشرون عضلة منها لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختلّ أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص .

هـ ـ الأعصاب والشرايين :

وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن ، فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن ، وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم .

(١) المقصود باللحم هو ما نسميه الآن بالنسيج العضلي المكوّن من ألياف عضلية ، أما الرباط فهو الأوتار التي بواسطتها ترتكز العضلات على العظام ، فما ذكره الغزالي عن تركيب العضلات صحيح ، بيد أنه أنقص الأوعية الدموية .

فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء مذرة[1] ، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات والأرض ؟ وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟

فلا تظنن أن ذرّة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتقنُ صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى : ﴿ أأنتم أشَدُّ خَلْقاً أم السَّماءُ بَناها ☆ رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ☆ وأغْطَشَ لَيلَها وأخْرَجَ ضُحاها ﴾[2] .

و ـ تطوُّر النطفة وعجائب البدن :

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً ، وتأمّل أنه لواجتمع الجنُّ والإنس على أن يخلقوا للنطفة

(١) مذر : فسد ، ومذرة فاسدة .

(٢) من سورة النازعات ، الآية : (٢٧ ـ ٢٩) .

سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً ، أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك ؟ بل لوأرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه .

فالعجب منك لونظرت إلى صورة إنسان مصوَّر على حائط تأنَّق النَّقّاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنَّه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النَّقّاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنَّما تمَّت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم والإرادة . وشيء من ذلك ليس من فعل النَّقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنَّما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكَّلها ، فأحسن تشكيلها ، وقدَّرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسَّم

أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام في أرجائها ، وحسّن أشكال أعضائها ، وزيّن ظاهرها وباطنها ، ورتّب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة .

١ ـ العينان :

وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتّب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها .

٢ ـ الأذنان :

ثم شقّ أذنيه وأودعهما ماءً مرّاً[1] ليحفظ سمعها ويدفع الهوام

(١) لا شك أنه يقصد مادة الصملاخ التي تفرزها غدد شمعية متوضعة في قناة مجرى السمع الخارجي ، وتبلغ أربعة آلاف غدة شمعية ، وظيفتها منع دخول الغبار والأوساخ والحشرات إلى الآذان ، كما تحمي الأذن من الالتهابات والعدوى .

عنها ، وحوَّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدتها دابة في حال النوم .

٣ ـ الأنف :

ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه .

٤ ـ الفم :

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عمّا في القلب . وزيَّن الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدَّد رؤوسها وبيَّض لونها ، ورتَّب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدُّرّ المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدَّ منفذه وليتمَّ بها حروف الكلام .

٥ ـ الحنجرة واللسان :

وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها .

ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يُظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرَّد الصوت في الظلمة .

٦ ـ الشعر :

ثم زيَّن الرأس بالشعر والأصداغ . وزيَّن الوجه باللحية والحاجبين ، وزيَّن الحاجب برقة الشعر واستقواص الشكل ، وزيَّن العينين بالأهداب .

٧ ـ الأعضاء الداخلية :

ثم خلق الأعضاء وسخَّر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر

المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم[1] ، والطحال[2] والمرارة[3] والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها

(١) يدخل الدم الوريدي إلى الكبد من وريد الباب محملاً بالمواد الغذائية التي امتُصَّتْ من الأمعاء الدقيقة ، وهنا يقوم الكبد بتحويل الغليكوز الذي دشل الدم إلى سكر حيواني (غليكوجين) ، ويُبقيْ في الدم جزءاً من الغليكوز لاستهلاك الأعضاء . ويحافظ الكبد على كمية الغليكوز هذه في الدم ، بل إنه يمدها عند النقصان بتحويل معاكس . كما يلعب الكبد دوراً هاماً في عملية النشاط الحيوي للجسم ؛ فهو يصنع المادة الصفراوية التي تشترك في عملية الهضم ، كما يشارك في عمليات استقلاب المواد الدهنية والبروتينية والسكرية .
وبالإضافة إلى ذلك للكبد وظيفة وقائية تتجلى في التخلص من بعض المواد السامة إذ يحوّلها إلى مركبات غير سامة ثم تطرح من الجسم عن طريق البول .

(٢) يُعنى الطحال بتدعيم دور خلايا الدم البيضاء ، ويساعد على استخلاص الحديد من الكريات الحمراء المتخربة ، كما أنه مستودع لخزن الدم . ويقوم الطحال أيضاً بتدمير الخلايا الحمراء والبيضاء القديمة التي انعدمت فائدتها كما يساعد على إبقاء الدورة الدموية خالية من الجراثيم والمواد الغريبة وإذا تمّ استئصال الطحال بسبب إصابته أو تمزقه يقوم بوظائفه نيابة عنه الكبدُ وأجزاء من مخ العظام .

(٣) المرارة هي حويصلة تختزن المادة الصفراوية التي تأتي عن طريق الكبد ،

بجـذب السواد عنهـا . والمرارة تخـدمهـا بجـذب الصفراء عنهـا . والكلية تخدمها بجذب المائية عنها . والمثانـة تخـدم الكليـة بقبول المـاء عنهـا ، ثم تخرجـه عن طريـق الإحليـل . والعروق تخـدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن .

٨ ـ اليدان والأصابع :

ثم خلق اليدين وطوّلهما لتمتدّ إلى المقاصد ، وعرَّض الكف ، وقسَّم الأصـابع الخمس ، وقسَّم كل إصبع بثلاث أنـامـل ، ووضـع الأربعة بجانب الإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع .

ولو اجتمع الأوَّلـون والآخرون على أن يستنبطـوا بـدقيـق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعـد الإبهـام عن الأربع وتفـاوت الأربع في الطـول وترتيبهـا في صفٍ واحـد لم يقـدروا عليـه ؛ إذ بهـذا الترتيب صلحت اليـد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريـد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمَّها ضمّاً غير تام كانت مغرفـة له ، وإن بسطها وضمَّ أصابعها كانت مجرفة له .

= ثم تفرزهـا إلى الاثني عشري عنـدمـا يـدخل الطعـام إلى المعـدة والأمعـاء لتشارك في عملية الهضم .

٩ ـ الأظافر :

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكّة لكان أعجز الخلق وأضعفها ، ولم يقم أحد مقامه في حكٍّ بدنه .

ثم هدى اليد إلى موضع الحكِّ حتى تمتدَّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل .

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدَّ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا آلته ! فهل رأيت مصوِّراً أو فاعلاً لا يمسُّ آلته أو مصنوعه ، ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه !

١٠ ـ الولادة :

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنَّه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكَّس وتحرَّك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه .

١١ ـ الثديان واللبن :

ثم لَمّا خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبَّر له في خلق اللبن اللطيف[١] ، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح

---

(١) يعتبر لبن الأم مادة غذائية لا بديل لها للطفل الوليد . يتألف لبن الأم من مواد عضوية وغير عضوية ، والمواد الرئيسية التي تدخل في تركيبه هي الدهن والبروتينات وسكر اللبن وڤيتامينات وأملاح معدنية (صوديوم ـ كالسيوم ـ بوتاسيوم ...) . كما أن في اللبن أجساماً مضادة مناعية تقي الطفل من بعض الأمراض .

حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدَّة الجوع ؟

١٢ ـ الأسنان :

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخَّر خلق الأسْنان إلى تمام الحولَين لأنه في الحولين لا يتغذى إلاَّ باللبن فيستغني عن السنّ ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ! ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه ، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبها لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

١٣ ـ العقل والتمييز :

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ؛ إمّا كفوراً أو شكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً ؛ تصديقاً

لقوله تعالى : ﴿ هَل أَتَى على الإنسانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَم يَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً ☆ إنّا خَلَقْنا الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً ☆ إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفوراً ﴾[1] ، فانظر إلى اللُّطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب ممّن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همِّه إلى التفكر في النَّقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوِّره ، فلا تدهشه عظمته ، ولا يحيره جلاله وحكمته ؟

فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها ، و أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت

---

(١) من سورة الإنسان ، الآية : (١ ـ ٣) .

غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ، ولا تعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وتغضب فتقاتل .

والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس[1] ؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرَّبين ، ويحشر في زمرة النبيين والصدِّيقين مقرَّباً من حضرة ربِّ العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ؛ فإنه شرٌّ من البهائم بكثير ، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك ، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطَّلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً .

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿ .. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم .. ﴾ ، فُصّلت ، الآية : (٥٣) .

ثانياً : التفكر في خلق الأرض وما عليها

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فاعرفه في الأرض التي هي مقرّك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماء . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها ، وجعلها قارّةً لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد .

ثم وسّع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، قال تعالى : ﴿ والسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وإنّا لَمُوسِعونَ ☆ والأرضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهِدونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلولاً فَامْشوا في مناكِبِها ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذي جَعَلَ

(١) من سورة الذّاريات ، الآية : (٣٨) .

(٢) من سورة الملك ، الآية : (٠٥) .

لَكُمُ الأرضَ فِراشاً ﴾[1] ، وقد أكثر في كتابه العزيز ، من ذكر الأرض فليتفكر في عجائبها ، فظهرها مقرٌّ للأحياء ، وبطنها مرقد للأموات ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفاتاً ☆ أحياءً وأمْواتاً ﴾[2] .

١ ـ نبات الأرض وعجائبه :

وانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات .

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصُّمّ الصِّلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حبٍّ وعنب

---

(١) من سورة البقرة ، الآية : (٢٢) .

(٢) من سورة المرسلات ، الآية : (٢٥) .

وقضب وزيتون ونخل ورمّان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والروائح ، يفضل بعضها على بعض في الأُكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإذا قلت : إنَّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ فمتى كان في النواة نخلة مطوقة لعناقيد الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادي وفتِّش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابهاً ، فإذا أنزل إليها الماء اهتزَّت ورَبَت وأنبتت من كلِّ زوج بهيج[١] ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها[٢] ، ثم اختلاف طبائع

---

(١) هذا تضمين للآية الكريمة :
﴿ وتَرَى الأرضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ اهتَزَّتْ ورَبَتْ وأنبَتَتْ من كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ ﴾ ، الحج ، الآية : (٥) .

(٢) قال الله تعالى :
﴿ وهُوَ الَّذي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شيءٍ فأخْرَجْنا مِنهُ خَضِراً نُخرِجُ مِنهُ حَبّاً مُتراكِباً ومِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِها قِنْوانٌ دانيةٌ =

النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟

فهذا النبات يغذي ، وهذا يقوِّي ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما ، وهذا يصفي الدم ، وهذا يستحيل دماً ، وهذا يفرِّح ، وهذا ينوِّم ، وهذا يقوِّي وهذا يُضعِّف ! فلم تنبت في الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها .

= وجَنّاتٍ مِن أعنابٍ والزَّيتونَ والرُّمانَ مُشْتَبِهاً وغيرَ مُتشابِهٍ ، انظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ ، إنَّ في ذَلِكُم لآياتٍ لِقومٍ يُؤْمِنونَ ﴾ ، الأنعام ، الآية : (٩٩) .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وهُوَ الَّذي أنشأ جَنّاتٍ مَعْروشاتٍ وغيرَ مَعروشاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيتونَ والرُّمّان مُتَشابِهاً وغيرَ مُتشابِه ، كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وآتوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ ، ولا تُسْرِفوا ، إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ ﴾ ، الأنعام ، الآية : (١٤١) .

وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ، فالنخل تؤبّر ، والكرم يكسح ، والزرع ينفى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يُستنبت ببثّ البذر في الأرض ، وبعضه بغرس الأغصان ، وبعضه يركب في الشجر .

ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر ، فهذه عجائب النبات .

٢ ـ معادن الأرض ونفائسها :

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض ، ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج[١] واللعل[٢] وغيرها ، بعضها منطبع تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها

(١) الفيروزج : حجر كريم .

(٢) اللعل : ضرب من الجواهر كالياقوت .

لا ينطبع كالفيروزج واللعل ؟ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتِّخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها .

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها ، وأقلّها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت منه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة[1] بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر ، فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منها ، ليكون ذلك تطييباً لطعامك، إذا أكلته فيتهنأ عيشك .

وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلاّ وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى : ﴿ وما خَلَقْنا

---

(١) سبخة : أرض ذات نز وملح ، والسبخة أيضاً ما يعلو الماء كالطحلب ، والسباخ من الأرض مالم يحرث ولم يُعمر .

السَّمٰوٰتِ والأرضَ ومــا بَيْنَهُما لاعِبينَ ☆ مـــا خَلَقْنـــاهُما إلاّ بِالْحَقِّ ﴾[1] .

٣ ـ حيوانات الأرض وعجائبها :

ومن آياته أصناف الحيوانات ، وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي . وانقســام مــا يمشي على رجلين ، وإلى مــا يمشي على أربــع ، أو على عشر ، أو على مئـــة ، كما يشـــاهـــد في بعض الحشرات . ثم انقسـامهـا في المنـافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع .

فـانظر إلى طيور الجو وإلى وحـوش البر والبهـائم الأهليـة ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خـالقهـا وقـدرة مقدِّرها وحكمة مصوِّرها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟

بل لو أردنا أن نذكر عجـائب البقـة أو النملـة أو النحلـة أو العنكبوت ـ وهي من صغـار الحيوانـات ـ في بنـائهـا بيتهـا وفي جمعها غذاءها ، وفي إلفها لزوجها ، وفي ادِّخارهـا لنفسهـا ، وفي

---

(١) من سورة الدُّخان ، الآية : (٣٨ ـ ٣٩) .

حذقها في هندسة بيتها ، وفي هدايتها إلى حاجاتها ، لم نقدر على ذلك .

فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتودد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ، ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد في زاوية مترصّداً لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علّق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا

طـارت رمى بنفسه إليهـا فـأخـذهـا ولفَّ خيطـه على رجليهـا وأحكمه ثم أكلها[1] .

ومـا من حيـوان صغير ولا كبير إلا وفيـه من العجـائب مـا لا يحصى . أفترى أنـه تعلَّم هـذه الصنعـة من نفسـه أو تكـوَّن بنفسه أو كوّنه آدمي أو علَّمه أو لا هادي له ولا معلِّم ؟!

أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصـه ، الظـاهرة قوتـه ، عـاجز عن أمر نفسـه فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركتـه وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ؟

فـالبصير يرى في هـذا الحيوان الصغير من عظمـة الخـالـق المدبِّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر المخلوقات .

(١) يوجد تحت جوف العنكبوت غـدد عنكبوتيـة خـاصـة تفرز سـائلاً يجمـد بسرعـة في الهـواء ، فيشكل خيطـاً يشبـه في تركيبـه الحرير . وتبني العنكبوت من هـذه الخيوط شبكـة صـائـدة في الهـواء أو على الأرض ، كما تبني بواسطة الغدد منزلها ، وتكوّن الشرانق حول بيوضهـا ، وتتغـذى على الذباب والبعوض وغيرها من الحشرات ذات الجناحين .

وهـذا البـاب أيضـاً لا حصر لـه فـإن الحيـوانـات وأشكالها وأخلاقهـا وطبـاعهـا غير محصورة ، وإنمـا سَقَـطَ تعجُّبُ القلوب منها لأُنسها بكثرة المشاهدة .

نعم إذا رأى حيواناً غريبـاً ولو دوداً تجـدَّد تعجُّبـه وقـال : سبحـان الله مـا أعْجبـه ! والإنســان أعجب الحيـوانــات وليس يتعجب من نفسه ، بل لو نظر إلى الأنعـام التي أَلِفَهـا ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه ، وأكنـانـاً لهم في ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانـاً لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومهـا أغـذيـة لهم ، ثم جعل بعضهـا زينـة للركـوب ، وبعضهـا حـاملـة لـلأثقـال قـاطعـة للبـوادي والمفازات البعيـدة ، لأكْثَرَ النـاظرُ التَّعجبَ من حكمـة خـالقهـا ومصوِّرها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيـط بجميع منـافعهـا سـابق على خلقه إياها[1] .

---

(١) من آيات القرآن الدالة على ذلك :

قـولـه تعـالى : ﴿ اللهُ الَّــذي جَعَـلَ لَكُمُ الأنعـامَ لِتَركَبـوا منهـا ومنهـا

فسبحان مَن الأمورُ مكشوفةٌ في علمه من غير تفكر ، ومن غير تأمُّل وتدبُّر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلاّ الإذعان

= تَأْكُلونَ ☆ ولَكُم فيها منافِعُ ولِتَبْلُغوا عَليها حاجَةً في صُدورِكُم وعليها وعلى الفُلْكِ تُحْمَلونَ ☆ ويُريكُم آياتِهِ فأيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرونَ ﴾ [غافر : ٧٩ـ ٨١] .

وقوله تعالى : ﴿ والَّذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها وجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ والأنعامِ ما تَرْكَبونَ ☆ لِتَسْتَووا على ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُم إذا اسْتَوَيْتُم عليهِ وتَقولوا سُبحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هذا وما كُنّا لهُ مُقْرِنينَ ﴾ [الزُّخرف : ١٢ـ ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ والأنعامَ خَلَقَها ، لَكُم فيها دِفءٌ ومَنافِعُ ومِنها تَأْكُلونَ ☆ ولَكُم فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وحينَ تَسْرَحونَ ☆ وتَحْمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ لَم تَكونوا بالِغيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأنْفُسِ ، إنَّ رَبَّكُم لَرَؤوفٌ رَحيمٌ ☆ والْخَيلَ والبِغالَ والْحَميرَ لِتَرْكَبوها وزينَةً ، ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمونَ ﴾ [النَّحل : ٥ـ٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنّا خَلَقْنا لَهُم مِمّا عَمِلَتْ أيدينا أنعاماً فَهُم لَها مالِكونَ ☆ وذَلَّلْناها لَهُم فَمِنها رَكوبُهُم ومِنها يَأْكُلونَ ☆ ولَهُم فيها منافِعُ ومَشارِبُ أفَلا يَشْكُرونَ ﴾ [يس : ٧١ـ٧٣] .

لقهره وقدرتـه والاعتراف بربوبيتـه والإقرار بـالعجز عن معرفـة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليـه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنـا الاعتراف بـالعجز عن معرفتـه ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنّه ورأفته .

٤ ـ البحار وما فيها من عجائب :

ومن آياته البحار العميقـة المكتنفـة لأقطـار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى إنَّ جميع الكشـوف من البـوادي والجبـال والأرض بـالإضـافـة إلى المـاء كحزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء ، قـال النَّبي ﷺ : « الأرض في البحر كالإصطبـل في الأرض »[1] ، فانسب اصطبلاً إلى جميع الأرض ، واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحـار ، فـإنّ مـا فيـه من الحيـوان والجـواهر أضعـاف عجـائب

---

(١) لم أجده .

ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرَّك ويعلم أنها حيوان(١) .

وما من صنف من أصناف حيوان البر فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر ، وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى اللؤلؤ ودوَّره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ،

---

(١) لاشك أن الغزالي ههنا يقصد الحيتان ، والحوت يعد من أضخم الحيوانات ، إذ يبلغ طوله ٩٠ قدماً ، أي أكثر من ثلاثين متراً ، ويزن ٣٠٠ طن تقريباً . والحيتان من الثدييات ذوات الدم الحار التي تتنفس في الهواء الجوي ، وقد تكيَّفت أجسامها للمعيشة في البحر ، وللحوت نافورة حيث فتحتا الأنف اللتان في أعلى رأسه ، يطرد منهما هواء الزفير على شكل نافورة .

وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه !

ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرَّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات .

٥ ـ الماء :

وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطره الماء ، وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ، ومُنِعَ منها لَبذل جميع خزائن الأرض

ومُلْكِ الدنيـا في تحصيلهـا لوملـك ذلـك ، ثم لوشربهـا ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها .

فـالعجب من الآدمي كيف يستعظم الـدينـار والـدرهم ونفـائس الجـواهر ، ويغفـل عن نعمـة الله في شربـة مـاء ، إذا احتاج لشربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها ! فتـأمل في عجائب المياه فيها والأنهار وآبار والبحـار ففيهـا متسع للفكر ومجال .

وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقـة بلسـان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قـائلـة لكل ذي لب : أمـا تراني وترى صـورتي وتركيبي وصفـاتي ومنـافعي واختـلاف حـالاتي وكثرة فـوائـدي ؟ أتظنُّ أنني كـوَّنت نفسي أو خلقني أحـد من جنسي ؟ أوَمـا تستحي أن تنظر في كلمـة مرقـومـة من ثـلاثـة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عـالم قـادر مريـد متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحـات وجهي

بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

٦ ـ النطفة مرة أخرى :

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون ، توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي ، فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدّي وشفتي ، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدرج ، ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم .

فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج ؟

فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنَّ الذي صوَّر ونقش وقدَّر لا نظير له ، ولا يساويه نقّاش ولا مصوِّر ، كما أنَّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع - فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين - فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ، فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه .

فسبحان من أهدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه ، فشاهدوه في جميع ذرّات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه ، واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا رادّ لحكمه ، ولا معقِّب لقضائه .

٧ - الهواء :

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعَّر السماء ومحدَّب الأرض ، يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه

ولا يرى بالعين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر .

فإذا حرك الله الهواء جعله ريحاً هابة ، فإن شاء جعله نشراً[1] بين يدي رحمته كما قال سبحانه : ﴿ وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ ﴾[2] ، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى : ﴿ إنّا أرْسَلْنا عَليهِم ريحاً صَرْصَراً في يَومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ ☆ تَنْزِعُ النَّاسَ كأنَّهُم أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[3] .

ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدّته وقوته مهما ضغط في الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء

---

(١) النشر : الريح الطيبة .

(٢) سورة الحجر ، الآية : (٢٢) وتمامها :
﴿ وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ فأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأسْقَيْناكُموهُ وما أنتُم لَهُ بخازِنينَ ﴾ .

(٣) سورة القمر ، الآية : (١٩ ـ ٢٠) .

فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه في الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض في الماء الهواءُ بقوته مع لطافته .

وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوّف فيه هواء لا يغوص في الماء لأنَّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة مع الهواء اللطيف ، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء ! فسبحان من علَّق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاّقة تشاهد وعقدة تشد .

ثالثاً : التفكر في عجائب ما بين الأرض والسماء

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض . وقد أشار القرآن في جملة ذلك فقال الله تعالى : ﴿ ما خَلَقْنا السَّموات والأَرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبينَ ﴾[1] ، وهذا هو الذي بينهما .

وقد أشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى : ﴿ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بينَ السَّماءِ والأَرْضِ ﴾[2] ، وحيث تعرَّض للبرق والرعد والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لديك حظ من هذه الجملة إلاّ أن ترى المطر بعينيك وتسمع الرعد بأذنيك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة ! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى ، فقد فتحتَ عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة ، وانظر ببصيرتك الباطنة ،

(١) من سورة الدُّخان ، الآية : (٣٨) .

(٢) من سورة البقرة ، الآية : (١٦٤) .

لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها ، وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه .

١ ـ السحاب وعجائبه :

فتأمل السحاب الكثيف المظلم ، كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل ، وممسك له في جو السماء ؛ إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القشرات ، كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى ، وعلى الشكل الذي شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرةٌ منها قطرةً ، ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتأخر المتقدِّم ولا يتقدَّم المتأخِّر حتى يصيب الأرض قطرة قطرة ، فلو اجتمع الأوَّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلاّ الذي أوجدها .

٢ ـ قطرات المطر :

ثم كل قطرة منهـــا عُيِّنت لكل جــزء من الأرض ، ولكل حيــوان فيهــا من طير ووحش وجميــع الحشرات والـــدّواب . ومكتوب على تلك القطرة بخطٍّ إلهي لا يـدرك بـالبصر الظـاهر أنهـا رزق الـدودة الفلانيـة التي في نـاحيـة الجبل الفلاني ، تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني ! هذا مع مـا في انعقـاد البرد الصلب من الماء اللطيف ، وفي تنـاثر الثلوج كالقطن المنـدوف ، من العجائب التي لا تحصى .

كل ذلـــك فضـــلٌ من الجبـــار القـــادر ، وقهرٌ من الخـــلاّق القــاهر ، مـا لأحـد من الخلق فيـه شرك ولا مـدخل ، بل ليس للمــؤمنين من خلقــه إلاّ الاستكانــة والخضــوع تحت جــلالــه وعظمتـه ، ولا للعميـان الجـاحـدين إلاّ الجهل بكيفيتـه ورجم الظنون بذكر سببه وعلته ، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ، ويظنّ أن هذه معرفـة انكشفت له ويفرح بها .

٣ ـ النسغ الصاعد في الأشجار :

ولو قيل له : ما معنى وما الذي خلقه ؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل ؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟

فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيغذي كل جزء من كل ورقة ، ويجري إليه في تجاويف عروق شعرية صغار ، يروي منه العرق الذي هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار ، فكأنّ الكبير نهر وانشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة ، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .

فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخَّر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلِمَ لا يحال عليه من أوَّل الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل .

رابعاً : التفكر في عجائب السموات

ومن آياته ملكوت والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً . فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر .

ـ عظمة السموات والنجوم :

ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه ، فما من سورة إلاّ وتشتمل على تفخيمها في مواضع ، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى : ﴿ والسَّماء ذاتِ البُروجِ ﴾[1] ، ﴿ والسَّماء والطَّارِق ﴾[2] ، ﴿ والسَّماء ذاتِ الْحُبُكِ ﴾[3] ، ﴿ والسَّماء وما بَناها ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ

(١) سورة البروج ، الآية : (١) .
(٢) سورة الطَّارق ، الآية : (١) .
(٣) سورة الذَّاريات ، الآية : (٧) .
(٤) سورة الشَّمس ، الآية (٥) .

وَضُحاها ، وَالْقَمَرِ إذا تَلاها ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ☆ الْجَوارِ الكُنَّسِ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ والنَّجْمِ إذا هَوَى ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ ☆ وإنَّهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمونَ عَظيمٌ ﴾[4] .

فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون وما أقسم الله بها ـ فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى : ﴿ وفي السَّماءِ رِزْقُكُم وما توعَدونَ ﴾[5] ، وأثنى على المفكرين فيه فقال : ﴿ ويَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾[6] ، وقال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها

---

(١) سورة الشّمس ، الآية : (١) .
(٢) سورة التّكوير ، الآية : (١٥) .
(٣) سورة النّجم ، الآية : (١) .
(٤) سورة الواقعة ، الآية : (٧٥) .
(٥) من سورة الذّاريات ، الآية : (٢٢) .
(٦) من سورة آل عمران ، الآية : (١٩١) .

سبلته » . أي تجاوزها من غير فكر . وذمَّ المعرضين عنها فقال : ﴿ وجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً مَحفوظاً وهُم عن آياتِها مُعْرِضونَ ﴾[1] .

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال : ﴿ وجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفوظاً ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ وبَنَيْنا فَوقَكُم سَبْعاً شِداداً ﴾[2] ، وقال : ﴿ أأَنْتُم أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماء بَناها ☆ رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ﴾[3]. فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت .

ـ التفكير في الملكوت :

ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمدّ البصر إليه

---

(١) من سورة الأنبياء ، الآية : (٣٢) .
(٢) من سورة النّبأ ، الآية : (١٢) .
(٣) من سورة النّازعات ، الآية : (٢٨) .

فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلِمَ مدح الله تعالى إبراهيم بقوله : ﴿ وكَذلِكَ نُرِي إبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّمواتِ والأرضِ ﴾[1] ؟ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ، ولا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو ﴿ عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ علىٰ غَيْبِهِ أحداً ☆ إلاَّ مَنِ ارْتَضى مِن رَسولٍ ﴾[2] .

فأجل أيها العاقل ، فكِّر في الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء ، فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي العرش عرشِ الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : « رأى قلبي ربي » ، وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة

(١) من سورة الأنعام ، الآية : (٧٥) .

(٢) من سورة الجن ، الآية : (٢٧) .

الأدنى ، وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التي هي مقرّك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السموات والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى ربِّ العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما .

فبينك وبين هذه ؛ المفاوزُ العظيمةُ ، والمسافات الشاسعة ، والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول : عرفته وعرفت خلقه ففي ماذا أتفكّر ؟ وإلى ماذا أتطلع ؟

ـ الكواكب :

فارفع الآن رأسك إلى السماء ، وانظر فيها ، وفي كواكبها ، وفي دورانها وطلوعها وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور

في حركتهـا ، ومن غير تغيُّر في سيرهـا ، بـل تجري جميعـاً في منازل مرتبة بحساب مقـدر لا يزيـد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طيَّ السِّجل للكتاب .

وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانهـا فبعضهـا يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البيـاض وبعضهـا إلى اللون الرصـاصي . ثمَّ انظر كيفية أشكالهـا ، فبعضهـا على صورة العقرب وبعضهـا على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة في الأرض إلاّ ولها مثيل في السماء .

ـ الشمس والليل والنهار :

ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكهـا في مـدة سنـة ، ثم هي تطلـع في كل يـوم وتغرب بسير آخر سخرهـا لـه خـالقهـا ، ولولا طلـوعهـا وغروبها لمـا اختلف الليـل والنهـار[1]، ولم تعرف

(١) لا يخفى على أحد أن الليل والنهار يتشكلان بسبب دوران الأرض حول نفسها ، ولعل الإمام الغزالي أراد تيسير الفهم فاكتفى بـذكر طلوع الشمس وغروبها ، أي ما يُرى بـالعَين ظـاهرياً ، وسنلحظ فيما بعد إشارتـه إلى حركة الكواكب وسرعتها اللتين يغفل الإنسان عن إدراكهما .

المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص .

ـ الشمس والفصول الأربعة :

وانظر إلى إمالته سير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف[1] ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان .

ـ حكمة الله في الكواكب :

وعجائب السماء لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها ، وهذا تنبيه على طريق الفكر ، وأعتقد على طريق

(١) تنشأ الفصول الأربعة عن ميلان محور الأرض عن مستوى مدارها حول الشمس ، إذ ينحرف بمقدار ٢٣° درجة تقريباً .

الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حِكَمٌ كثيرة في خلقه ، ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ، ثم في وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده .

وقِس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلاّ وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه .

وقِس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر لآدمي على أن يدركها ويدور بجانبها ، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مئة ونيفاً وستين[1] مرة ، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها ، ثم الكواكب

(١) يبلغ قطر الشمس نحو ٨٦٥٣٨٠ ميلاً ، بينما يبلغ قطر الأرض الذي يصل قطبها الشمالي وقطبها الجنوبي ٧٩٠٠ ميل ، ويبلغ قطر دائرتها الاستوائية ٧٩٢٦ ميلاً .

التي تراها ؛ أصغرها مثل الأرض ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ؛ وهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ؛ إذ للبعد صارت ترى صغاراً ، ولذلك أشار الله تعالى إلى بُعدها فقال : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾[1] .

وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمس مئة[2] عام ، فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً ، فانظر إلى كثرة الكواكب . ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها . ثم انظر إلى سرعة

(١) سورة النّازعات ، الآية : (٢٨) .

(٢) هذا الكلام جزء من حديث ضعيف لأنه مرسل رواه ابن جرير الطبري وتمامه : أن قتادة وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال :
« بينما رسول الله ﷺ جالس مع أصحابه يوماً ، إذ مرَّ سحاب ، فقال أتدرون ما هذا ؟ هذا العنان ، هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يعبدونه . ثم قال : أتدرون ما هذه السماء ؟ موج مكفوف ، وسقف محفوظ ، وفوق ذلك سماء أخرى ، حتى عدَّ سبع سموات ، وهو يقول : أتدرون ما بينهما ؟ ثم يقول خمس مئة عام ، ثم قال : أتدرون ما فوق ذلك ؟ فوق ذلك العرش » .

حركتها ، وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها ، لكن لا تشك أنها لحظة تسيرُ مقدار عرض الكوكب ، لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب مثل الأرض مئة مرة وزيادة ، فقد دارالفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مئة مرة ، وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه .

فانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ : « هل زالت الشمس ؟ فقال : لا .. نعم ، فقال : كيف تقول لا .. نعم . فقال : من حين قلت : لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمئة عام »[1] .

فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها . فهذه السماء بعظمتها وكثرة كواكبها

---

(١) لم أعثر لهذا الحديث على أصل .

لا تنظر إليها ، بل انظر إلى بـارئهـا كيف خلقهـا ، ثم أمسكهـا من غير عمـد ترونهـا ، ومن غير علاقـة من فـوقهـا ، وكل العـالم كبيت واحد والسماء سقفه .

خامساً : [الخاتمة]

ـ غفلة الإنسان :

فالعجب منك أنك تدخل بيت غني ، فتراه مزوّقاً بالصبغ ، مُموّهاً بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طوال عمر ! وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه ! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلاّ أنه بيت ربك ، هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ؟

ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون

البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مئة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا لغرور ، وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك .

ـ مثل الإنسان :

وما مثلك ومثل عقلك إلاّ كمثل النملة تخرج من حجرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجواري والغلمان ، وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من حجرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلاّ عن بيتها وغذائها وكيفية ادّخارها ، فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر من

نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكانه ، فأنت غافل أيضاً عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلاّ ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلاّ ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك .

نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرف عجائبك وعجائب قصرك وبديع صنعة الصانع فيه ، وأمّا أنت فلك القدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه .

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بإضافة ما عرفه جملة العلماء والأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ما عرفوه بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرَّبون كإسرافيل وجبريل

وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيفت إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمَّى علماً ، بل هو إلى أن يسمَّى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب . فسبحان من عرَّف عباده ما عرَّف ثم خاطب جميعهم فقال : ﴿ وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾[1] .

ـ معرفة الخالق وعظمته وجلاله :

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها المتفكرون في خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلالته وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم .

وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره ، فتزداد به معرفة ، أو تزداد بحسنة له توقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتى إنّ كل كلمة

(١) من سورة الإسراء ، الآية : (٨٥) .

من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك ، ويستدعي التعظيم له في نفسك .

فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً ، وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق . فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإذا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنّه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرّة في السماء والأرض إلاّ والله سبحانه وتعالى يضلُّ بها من يشاء ويهدي من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ، ومن نظر فيه قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقى وارتدَّ فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنِّه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

المحتوى

Meditating Allah's Creation

Man the Earth the Heavens

Al Tafakkur fī Khalq Allāh

by: Al-Imān abū Ḥāmid al Ghazālī
Rev: Māhir al Munajjid

التفكر في خلق الله

لقد بُذل جهد كبير في تحقيق هذا الكتاب ، يتجلّى بمتابعة جميع المسائل العلميّة الّتي ذكرها الإمام الغزالي في هذا الكتاب ، وهي مسائل تنتمي إلى علوم البيولوجيا والفيزيولوجيا والجيولوجيا .. والّتي تجعل القارئ ينبهر بالمستوى العلمي المتقدّم الّذي بلغه عصر الغزالي ، والّذي هضمه حُجّة الإسلام جيداً ، ولذلك لم يترك الأستاذ المحقّق قضيّة علميّة أو معلومة إلاّ وذكر ما يقابلها من علوم عصرنا الحاضر بالتّفصيل ، ليستطيع القارئ أن يقارن بين ما يقدّمه الغزالي في هذا الكتاب ، وبين المعطيات العلميّة لقرننا هذا ، مذكّرين أن بين عصر الغزالي وعصرنا ما يقارب الألف عام .

(التفكر في خلق الله : الإنسان ، الأرض ، السّموات وعجائبها) من أعظم الكتب الّتي ألّفها الغزالي ، والتي تتّفق مع معطيات البيولوجيا والعلوم الحديثة .

Distributed and ordered by: Dar Al Fikr
3520 Forbes Ave., Suite A 259,
Pittsburgh, PA 15213, USA .
E-Mail Fikr @asca.com

ISBN: 1-57547-237-6